الطفل آدام

إرادة قهرت المستحيل

المؤلفة : منيرة جوادي .

رسوم : حمزة فتيني .

إِلَى رُوحِ وَالِدِي خُلُودًا فِي الذَّاكِرَةِ...

إِلَى أُمِّي الحَبِيبَة و أُسْرَتِي الغَالِيَة ...

إِلَى كُلِّ أَطْفَالِ العَالَمِ ...

إِلَى أَطْفَالِ التوُّحُّدِ الذّينَ يَظَلّونَ أَمَلاً نَابِضًا رَغْمَ القَوْقَعَة التِي احْتَلّتْ طَاقَاتِهِمْ...

إلى اِبْني أيمن نورًا وحبًّا وأمنية ً...

إلى كلِّ مُتَيَّمٍ بِلُغَةِ الضّادِ عِشْقًا للضّادِ...

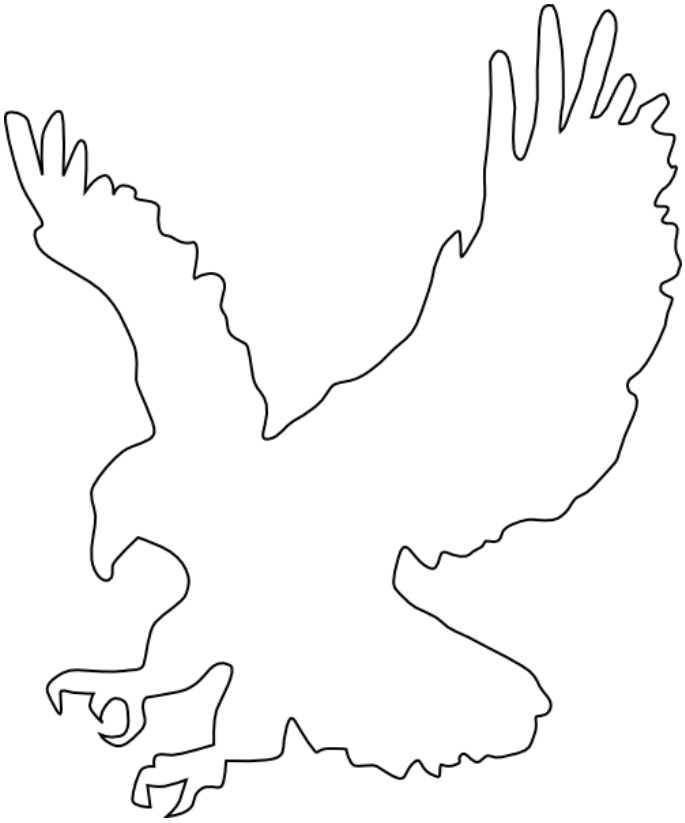

آدَامْ طِفْلٌ مِنَ السّاحِلِ الإفريقيّ لَمْ يُتِمَّ سَنَتَهُ الثّامِنَةَ بَعْدُ. يَعيشُ مَعَ عَائِلَتِهِ وَسَطَ إِحْدى الغَابَاتِ الكُبْرَى . وَالِدُهُ حَطَّابٌ يُدْعَى أمَادُو يَقْطَعُ الأشْجَارَ وَ يَبِيعُهَا أيَّامَ الآحَادِ لِمَصَانِعِ الخَشَبِ المُتوَزِّعَةِ وَسَطَ المَدِينَةِ الأَقْرَبِ لِلْغَابَةِ حَيْثُ يُقِيمُ .

لَمْ يَتَمَكّنْ مِنِ ارْتِيَادِ المَدْرَسَةِ لِعُسْرِ الطَّرِيقِ وانْعِدامِ وَسَائِلِ نَقْلٍ تُيَسّرُ لَهُ الإلْتِحاقَ بِصُفُوفِ أَتْرَابِهِ الذينَ أَقَامُوا قُبَالَةَ الوَادِي الكَبِيرِ.

يَسْتَيْقِظُ آدَامْ كُلَّ صَبَاحٍ ثُمَّ يَسِيرُ نَحْوَ السّهْلِ المطِلِّ عَلَى الوادي . يَقِفُ هُنَاكَ وَ يَمُدُّ عُنُقَهُ مُتَطَلّعًا إِلَى أَطْفَالِ المَدَارِسِ وَ هُمْ يَحْمِلُونَ حَقَائِبَهُمْ مُنْشِدِينَ بَعْضًا مِمَّا تَعَلَّمُوهُ فِي عَالَمِهِمْ الذِّي يَجْهَلُ عَنْهُ الكَثِيرَ فَتَلْتَمِعُ الدُّمُوعُ فِي مِحْجَرَيْهِ وَ يَبْكِي حِرْمَانَهُ مِنَ الكُتُبِ وَ الأَقْلَامِ وَ اللّهْوِ فِي بَاحَةِ المَدْرَسَةِ .

- أَبِي لِمَ اَنَا هُنَا ؟ المَدْرَسَةِ لِجَمِيعِ الأَطْفَالِ فَلِمَ أَقْبَعُ أَنَا فْي بَيْتِنا بَيْنَمَا يَنْعَمُ غَيْرِي بِالعِلْمِ و الأَدَبِ ؟

كَانَ يُكَرّرُ سُؤَالَهُ فَيَمْتَزِجُ الكَلاَمُ عِنْدَهُ بالدّمْعِ الطُّفُولِيّ القَاسِي . قَلْبُهُ الصّغِيرُ أَضْنَاهُ وَجَعُ الحِرْمَانِ وَ قَسَاوَةُ الحَظِّ . أَمَّا أَمَادُو فَلاَ رَدَّ لَهُ سِوَى أَنَّ الوَادِي

اِنْتَصَبَ حَاجِزًا فَصَلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ أَحْلاَمِهِمْ بِارْتِيَادِ مَدْرَسَةِ الذّكُورِ التِي اسْتَقَرَّتْ عَلَى سَفْحِ الجَبَلِ الأَخْضَرِ.

كَانَ أَمَادُو كُلّمَا انْتَقَلَ إلى المَدِينَةِ لِبَيْعِ الحَطَبِ يَصْطَحِبُ اِبْنَهُ وَ يُحَاوِلُ تَلْقِينَهُ فَنَّ التِّجَارَةِ وَ التَّعَامُلِ مَعَ الزَّبَائِنِ غَيْرَ أَنَّ أَحْلاَمَ آدَامْ تَجَاوَزَتِ الآفَاقَ الْتِي كَانَ وَالِدَهُ يَسْعَى دَوْمًا لِرَسْمِهَا كُلَّمَا سَارَ بِهِ إِلَى وَرَشَاتِ النّجَّارِينَ وَ أَصْحَابِ المَصَانِعِ . كَانَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ يَتَطَلَّعُ إِلَى آفَاقِ المَعْرِفَةِ . فَهْوَ رَغْمَ أُمّيَتِهِ وَ صِغَرِ سِنّهِ يَعْرِفُ حَقَّ المَعْرَفِة أَنَّ العِلْمَ أَسَاسُ كُلّ النّعَمِ وَ أَنَّ الوُجُودَ يَسْتَحِيلُ عَدَمًا إِذَا مَا أَحَاطَتْ بِهِ أَسْوَارُ الجَهْلِ .

ذَاكَ هُوَ آدَامُ طِفْلٌ رَصِينٌ ذُو حِكْمَةٍ وَ عَقْلٍ وَ أُمْنِيَاتٍ لاَ تُغَادِرُ خَيَالَهُ التوّاقَ إِلَى العُلَى . كَانَ يَنْظُرُ إِلَى وَالِدِهِ وَهُوَ يَقْطَعُ الأَشْجَارَ وَ قَدْ اسْتَقَرَّتِ الفَأْسُ بَيْنَ يَدَيْهِ الوَاهِنَتَيْنِ مُحَاوِلاً أَنْ يَهْزِمَ قُوَّةَ الجُذُوعِ العَرِيضَةِ بِجَسَدِهِ النّحِيلِ فَيَتَأَلَّمُ لِأَجْلِهِ كَثِيرًا وَ يَنْتَابُهُ شُعُورٌ آسِرٌ بِالأَسَى. كَانَ يَتَذَكَّرُ الأَطِبَّاءَ وَ المُحَامِينَ الَّذِينَ يَرَاهُمْ مُصَادَفَةً فِي شَوَارِعِ المَدِينَةِ وَيُقَارِنُ رَخَاءَ وَضْعِهِمْ بِحَالَ وَالِدِهِ فَيَتَّحِدُ الأَمَلُ بِكَيَانِهِ رَغْمَ كُلّ المُسْتَحِيلِ الْذِي خَلَقَهُ القَاعُ الفَاصِلُ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ سَفْحِ الجَبَلِ.

هُوَ مُؤْمِنٌ أَنَّ العَزْمَ طَاقَةٌ عَظِيمَةٌ لَا يَجِبُ أَنْ تُفَارِقَنَا وَ أَنَّ المُسْتَحِيلَ يُصْبِحُ سَهْلاً لَيِّنًا إِذَا مَا زَعْزَعَتِ الإِرَادَةُ أَرْكَانَهُ لِذَلِكَ ظَلَّتْ أَمَانِيَهِ تُرَاوِدُهُ فَغَدَتْ رَفِيقَتَهُ أَوْقَاتَ عُزْلَتِهِ الْتِي كَانَ يُقَضّيهَا بَيْنَ الأَشْجَارِ المُرْتَفِعةِ عَالِيًا فِي السَّمَاءَ كَهِمَّتِهِ الَّتِي لاَ تَنْحَنِي .طَالَمَا جَلَسَ وَحِيدًا تَحْتَ شَجَرَةِ التُّوتِ الَّتِي اتَّخَذَهَا مَكَانًا مُفَضَّلاً أَوْقَاتَ القَيْلُولَةِ فَيَسْتَلْقِي عَلَى الْأَدِيمِ النَّدِيِّ وَ يُرْسِلُ نَظَرَهُ عَالِيًا إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى آمَالَهُ نَابِضَةً لاَ تَهْدَأُ . كَانَ يَتَخَيَّلُهَا بِجَمَالِ الرَّبِيعِ وَ يَرْسُمُ لَهَا عُيُونًا وَجَدَائِلَ بِلَوْنِ الشَّمْسِ المُشِعَّةِ فَتَمْلَأُ نَفْسَهُ غِبْطَةً وَ تَنْفَرِجُ شَفَتَاهُ ابْتِسَامًا فَتَكْبُرُ الأَحْلاَمُ دَاخِلَهُ لِتَبْلُغَ عَنَانَ السَّمَاءِ وَ تَغْمُرُ رُوحَهُ سَعَادَةٌ بَثَّهَا خَيَالٌ جَمِيلٌ جَمَالَ الأَوْرَاقِ الْتِي زَيَّنَتْ أَغْصَانَ شَجَرَتِهِ .

وَرَقَةٌ وَ قَلَمٌ وَ كِتَابٌ تِلْكَ هِيَ أَمَانِيهُ الآنِيّةُ . آخِرُ زِيَارَةٍ لَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ طَلَبَ مِنْ وَالِدِهِ أَنْ يَشْتَرِيَ لَهُ دَفْتَرًا وَبَعْضَ الأَقْلاَمِ غَيْرَ أَنَّهُ أَجَابَهُ ضَاحِكًا :

ـ مَا بِكَ يَا بُنَيَّ ؟مَا أَنْتَ فَاعِلُ بِهَذِهِ الأَغْرَاضِ ؟ نَحْنُ لَا نَحْتَاجُهَا . كُلُّ مَا نُرِيدُهُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا فَأْسًا وَ شَجَرَةً وَسَوَاعِدَ مَفْتُولَةً . دَعِ الأَوْرَاقَ لِأَصْحَابِهَا وَ لاَ تُفَكِّرْ فِيهَا

ثَانِيَةً . تَذَكَّرْ وَادِينَا وَ قَاعَهُ العَمِيقَ وَ سَتَنْسَى أَمْرَ الأَوْرَاقِ وَ الكُتُبِ .

هَمَّ آدَامُ بِالرَّدِّ لَكِنَّ وَالِدَهُ غَيَّرَ مَجْرَى الحَدِيثِ وَ سَأَلَهُ عَمَّا تَحْتَاجُهُ أُمَّهُ مِنَ المَدِينَةِ . عَلِمَ أَنْ لَا جَدْوَى مِنْ إِعَادَةِ الطَّلَبِ فَاسْتَقَرَّ عَلَى ظَهْرِ الحِمَارِ خَلْفَ وَالِدِهِ و شُعُورٌ بِالحُزْنِ يَسْرِي فِي تَجَاوِيفِ نَفْسه .

تَوَقَّفَا عِنْدَ دُكَّانِ مَانُو فَرَاحَ الأَبُ يُقَلِّبُ الفُؤُوس وَ المَنَاشِيرَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ المَعَاوِلِ الصَّغِيرَةِ فَدَعَا آدَامَ لِرُؤْيَتِهَا لَعَلَّ إِحْدَاهَا تَشُدُّ اهْتِمَامَهُ .

كَعَادَتِهِ كَانَ مُطِيعًا لِوَالِدِهِ لاَ يَرُدُّ لَهُ طَلَبًا فَرَغْمَ نُفُورِهِ مِنَ المَعَاوِلِ وَ صَوْتِ الْحَدِيدِ إِذَا مَا اسْتَقَرَّ عَلَى الْجُذُوعِ إِلَّا أَنَّهُ تَقَدَّمَ مِنْ أَبِيهِ مُبْتَسمًا وَ قَالَ:

- كَمَا تُرِيدُ يَا أَبَتِي . أَنَا تَحْتَ أَمْرِكَ . اِبْتَعْ مَا يَحْلُو لَكَ . لَا ذَوْقَ يَعْلُو عَلَى ذَوْقِكَ .

نَظَرَ أَمَادُو لِابْنِهِ نِظْرَةَ رِضًى وَ حُبُورٍ ثُمَّ مَسَحَ عَلَى رَأْسِهِ وَ قَالَ:

- بَلْ أُرِيدُكَ أَنْ تَكُونَ صَاحِبَ الاخْتِيَارِ . ذَوْقُكَ يَعْنِينِي كَثِيرًا . سَتَكُونُ وَرِيثِي فِي عَمَلِي وَ لَابُدَّ أَنْ يَكْبُرَ فِيكَ الاهْتِمَامُ بِكُلِّ مَالَهُ عَلاَقَةٌ بِالجُذُوعِ وَ الأَخْشَابِ.

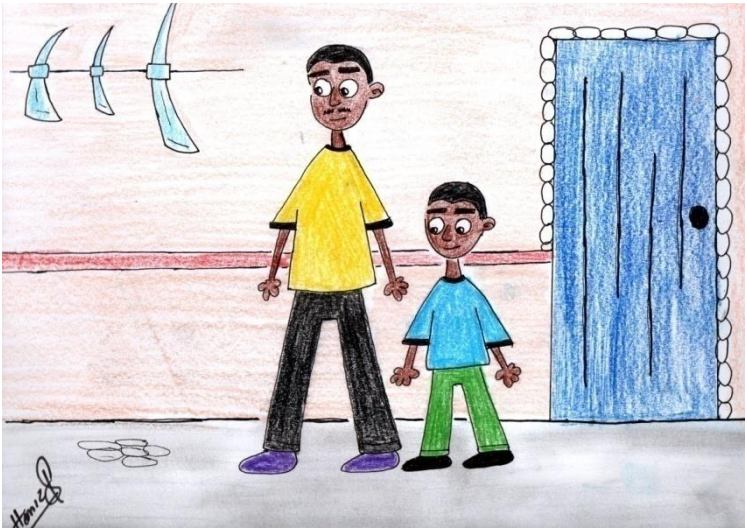

اِنْحَنَى آدَاُم وَ جَعَلَ يَتَحَسَّسُ الحَدِيدَ وَ مَقَابِضَ الخَشَبِ الطَّوِيلَة . لَمْ تَكُنْ قَسْوَةُ المَعْدَنِ الصَّلْبِ تَسْتَهْوِي كَفَّهُ الصّغِيرَةَ وَ طُمُوحُهُ الجَامِحَ لِاكْتِشَافِ عَالَمِ الفِكْرِ وَ الأَدَبِ . كَانَتْ المَعَاوِلُ تَمْثُلُ أَمَامَهُ قَيْدًا لَئِيمًا يُرِيدُ أَنْ يُثْنِيَهُ عَنْ عَزْمِهِ فَيَشُدُّ مِعْصَمَ الحُلْمِ إِلَى الأَسْفَلِ شَدًّا مُوجِعًا .

لَمْ يَخْتَرْ شَيْئًا إِنَّمَا تَظَاهَرَ بِذَلِكَ احْتِرَامًا لِوَالِدِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مِعْوَلٍ صَغِيرٍ كَانَ قَدْ وُضِعَ أَعْلَى المَجْمُوعَةِ و قال :

- هَذَا مَا أَعْجَبَنِي فَمَا رَأْيُكَ يَا أَبِي ؟

ردَّ الأَبُ في هَمْسٍ:

- لاَ أَرَى الآنَ غَيْرَ رَأْيَكَ . أَنْتَ صَاحِبُ الفَأْسِ .

رَدَّ آدَامُ وَهُوَ يُقَبِّلُ يَدَ وَالِدِهِ :

- شُكْرًا جَزِيلًا . أَدَامَكَ اللّهُ لَنَا .

رَغْمَ كُلّ الاخْتِلَافِ فِي الأَفْكَارِ وَ الهُوَّةِ السَّحِيقَةِ التّي تَفْصِلُ بَيْنَ طُمُوحِ كُلٍّ مِنْهُمَاإِلّا أَنَّ آدَامَ يَظَلُّ الصَّبِيّ الهَادِئَ الذّي لَا يُكِنُّ لِوَالِدِهِ سِوَى الحُبّ وَ الاِحْتِرَامِ لِذَلِكَ كَانَ يُمَثِّلُ لأَبِيهِ نُورَ الدّنْيَا وَ الأَمَلِ الذّي رَتَّبَ أَيّامَهُ فَجَعَلَهَا زَهْوًا لَا يَنْضُبُ .

أَخَذَا الفَأْس وَانْطَلَقَا نَحْوَ الغَابَةِ وَ لَمْ يَنْسَيَا مَا طَلَبَتْهُ الْأُمُّ فَتَوَقَّفَا عِنْدَ أَوَّلِ دُكَّانٍ. اِقْتَنَى الأَبُ بَعْضَ الخُضَرِ والسُّكَّرِ ثُمَّ اعْتَلَيَا ظَهْرَ الحِمَارِ ثَانِيَة .

بَدَأَتِ الشَّمْسُ تَغْرَقُ فِي الأُفُقِ وَ انْتَشَرَتْ حُمْرَة الشَّفَقِ عَلَى صَفْحَةِ السَّمَاءِ فَذَبُلَتْ زُرْقَتُهَا وَ اسْتَقْبَلَتِ الغُرُوبَ مُنْتَظِرَةً إِشْرَاقَةَ صُبْحٍ جَدِيدٍ .

حَلَّ أَمَادُو وَ آدَامُ بِالْبَيْتِ فَاسْتَقْبَلَتْهُمَا الْأُمُّ بَاسِمَةً وَ قَبَّلَتْ اِبْنَهَا وَ احْتَضَنَتْهُ وَ قَالَتْ :

ـ أُقْسِمُ أَنَّكَ الدُّنْيَا وَ مَا فِيهَا . أَنْتَ أَمَلِي يَا وَلَدِي. أَمْسَكَ ادَامُ يَدَ أُمِّهِ وَ قَبَّلَهَا ثُمَّ دَخَلَ بَيْتَهُمُ الصَّغِيرَ و اسْتَلْقَى عَلَى فِرَاشِهِ الذِّي لَامَسَ بِلاَطَ الغُرْفَةِ .

كَانَ آدَامُ الإبْنُ الوَحِيدُ لِأَمَادُو وَ تَانْيَا . لَمْ يُرْزَقَا غَيْرهُ و لَيْسَ لَهُمَا أَمَلٌ آخَرُ يَعِيشَانِ مِنْ أَجْلِهِ . وَمِمَّا زَادَ حُبّهُمَا لَهُ امْتِثَالهُ لِأَوَامِرِهِمَا و هُدُووُءُهُ وَ شَجَاعَتُهُ التِّي حَاكَتْ شَجَاعَةَالأبطال مِنَ الرِّجَالِ .

أَعْلَنَ اللّيْلُ قُدُومَهُ فَاسْوَدَّ الفَضَاءُ وَ كَرَّرَ الصّدَى عُوَاءَ الذِّئَابِ التّي طَالَمَا جَابَتِ المَكَانَ وَ فَتَكَتْ بِكُلِّ مَا وَقَعَ بَيْنَ بَرَاثِنِهَا مِنْ أَرَانِبَ وَ سَنَاجِبَ . وَ كَمْ مِنْ طِفْلٍ طَحَنَتْهُ أَنْيَابُها فَلَمْ تَتْرُكْ مِنْهُ إِلّا العِظَامَ التِّي اسْتَعْصَى عَلَيْهَا دَقُّهَا .

اللّيْلُ أَنِيسُ آدَامَ وَ رَفِيقُهُ الوَفِيُّ يَرْوِي لَهُ فِي صَمْتٍ أَحْدَاثَ يَوْمِهِ وَ آماله التِّي رَسَمَهَا وَشْمًا عَلَى جِدَارِ

الطُّمُوحِ . اِسْتَسْلَمَ سَرِيعًا لِلنَّوْمِ وَ غَاصَ فِي جَنَّةِ أَحْلَامِهِ. هَا هُوَ يَسْتَقِرُّ فِي مَنَامِهِ أَمَامَ الوَادِي السّحِيقِ وَ قَدْ حَمَلَ بِيَمِينِهِ مِشْعَلًا ثُمَّ ارْتَقَى أَعْلَى شَجَرَةِ بِالْمَكَانِ وَ خَاطَبَ عَدُوَّهُ فِي صَوْتٍ جَهْوَرِيٍّ :

- أَيُّهَا السّحِيقُ الجَاثِمُ فِي الأَسْفَلِ لِمَ اسْتَعْمَرْتَ هَذَا الفَضَاءَ الرَّحْبَ ؟ لِمَاذَا أَطْفَأْتَ جَذْوَتِي وَ قَيَّدْتَ حَظِّي ؟ سَأُنْشِئُ جِسْرًا أَتَحَدّاكَ بِهِ أَوْ أُلْقِيَ فِي بَاطِنِكَ كُلَّ تُرَابِ الأَرْضِ فَتَغْدُو سَهْلاً تَطَأُهُ أَقْدَامُنَا فَنَسِيرُ صَوْبَ ذَلِكَ السَّفْحِ العَظِيمِ .

يُهَمْهِمُ الوَادِي وَ يَزْأَرُ كَالأَسَدِ ثُمَّ يُقَهْقِهُ وَ يَقُولُ وَ قَدْ رَجَّعَ الصَّدَى قَوْلَهُ :

- أَيُّهَا الإِنْسَانُ أَنَا لَا أُهْزَمُ . ضَعْ طُمُوحَكَ فِي قَاعِ النِّسْيَانِ. سَتَظَلُّ هُنَاكَ مُنْفَصِلًا عَنْ كُلِّ الدُّنْيَا . أَنَا حَاجِزٌ لاَ يَغِيبُ .

حَافَظَ آدَامُ عَلَى هُدُوئِهِ المَعْهُودِ وَ رَمَقَ الوَادِي بِنَظْرَةِ ازْدِرَاءٍ وَ قَالَ :

- أَنْتَ مُجَرَّدُ قَيْدٍ غَارِقٍ فِي وَهْمِكَ . سَنَكْسِرُ القُيُودَ

وَ نُضْرِمُ فِي وَهْمِكَ نَارًا لَا تَخْمُدُ.

تَحَرَّكَ الْوَادِي وَاهْتَزَّتِ الأَرْضُ فَمَالَ جِذْعُ الشّجَرَةِ بِآدَام الذِّي اسْتَيْقَظَ عَلَى صَيْحَتِهِ التِّي هَزَّتْ أَرْكَانَ المَنْزِلِ فَاسْتَفَاقَ وَالِدَاهُ وَ عَجَّلَا قُرْبَهُ . وَضَعَتْ أُمّهُ رَاحَتَهَا عَلَى جَبِينِهِ ثُمَّ احْتَضَنَتْهُ وَ قَالَتْ:

- مَاذَا حَلَّ بِكَ يَا صَغِيرِي؟ هَلْ أَصَابَكَ مَكْرُوهٌ أَمْ مَاذَا؟ هَلْ أَنْتَ مَرِيضٌ ؟

أَمَّا الأَبُ فَوَقَفَ قُرْبَهُ صَامِتًا ثُمَّ أَمْسَكَ يَدَ آدَامَ وَ وَضَعَهَا بَيْنَ كَفَّيْهِ لِيُعِيدَ لَهُ سَكِينَتَهُ .

عَادَ أَمَادُو إِلَى غُرْفَتِهِ أَمَّا تَانْيَا فَمَكَثَتْ إِلَى جَانِبِ ابْنِهَا مُحَاوِلَةً مَعْرِفَةَ مَا تَسَلَّطَ عَلَيْهِ . جَلَسَ الطِّفْلُ وَ قَدْ اسْتَرْجَعَ أَنْفَاسَهُ ثُمَّ قَصَّ عَلَيْهَا مَا رَآهُ فِي مَنَامِهِ . ابْتَسَمَتْ وَ قَالَتْ :

- مُجَرّدُ كَابُوسٍ يَا بُنَيّ . لاَ تَشْغَلْ بَالَكَ بِهِ كَثِيرًا . حَاوِلْ أَنْ تَغْفُوَ قَلِيلًا لَقَدْ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ أَكْثَرُهُ. إِنَّنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى نَشَاطِكَ صَبَاحًا . ثُمَّ تَرَكَتْهُ وَ عَادَتْ إِلَى غُرْفَتِهَا .

اِنْطَوَى جَنَاحُ اللّيْلِ وَ أَلْقَتِ الشَّمْسُ خُيُوطَهَا السّاحِرَةَ عَلَى جِدَارِ غُرْفَةِ آدام فَنَهَضَ واسْتَقْبَلَ يَوْمَهُ بِعَزْمٍ لَا يَنْطَفِئُ رَغْمَ بَشَاعَةِ حلمه. كَانَ قَدْ وَعَدَ وَالِدَهُ

بِمُسَاعَدَتِهِ فِي قَطْعِ الأشجار وَبَدْءِ مَسِيرَةِ الحَفْرِ فِي الجُذُوعِ مِنَ اليَوْمِ نُزُولًا عِنْدَ رَغْبَتِهِ .

أَخَذَ فَأْسَهُ الصّغِيرَةَ وَانْطَلَقَ حَيْثُ وَالِدُهُ . وَفِي طَرِيقِهِ العَامِرَةِ بِالأَشْجَارِ الْتَقَى بَعْضَ أصْدِقَائِهِ الذّينَ يَعِيشُونَ مِثْلَهُ بَعِيدًا عَنِ المَدْرَسَةِ وَ الذّينَ انْتَصَبَ الوَادِي هُوَّةً عَمِيقَةً بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ السَّهْلِ المُقَابِلِ حَيْثُ يَنْهَلُ غَيْرُهُمْ مِنْ أَنْهَارِ العِلْمِ وَ الأَدَبِ . طَلَبَ مِنْهُمْ مُرَافَقَتَهُ إِلَى حَيْثُ تَتَسَاقَطُ الهَيَاكِلُ الخَضْرَاءُ تَحْتَ ضَرَبَاتِ فَأْسِ وَالِدِهِ . تَجَاذَبُوا أَطْرَافَ الحَدِيثِ و اسْتَذْكَرُوا لَحَظَاتٍ حُلْوَةٍ قَضَّوْهَا مَعًا . كَانَ آدَامُ يَسِيرُ بَيْنَهُمْ وَ فِكْرُهُ مَشْدُودٌ إِلَى الحُلْمِ المُفْزِعِ الذّي زَلْزَلَ سَكِينَتَهُ البَارِحَةَ . أَرَادَ أَنْ يَقُصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَآهُ فِي نَوْمِهِ غَيْرَ أَنَّهُ تَرَاجَعَ وَ أَجَّلَ ذَلِكَ إِلَى حِينِ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَ الوَادِي . خَشِيَ أَنْ تَشُدَّهُمْ غَرَابَةُ الحَدَثِ فَيَتَبَاطَؤُونَ فِي سَيْرِهِمْ وَ يَتَأَخَّرُ هُوَ بِذَلِكَ عَنْ وَالِدِهِ .

رِفَاقُهُ الثّلَاثَةُ هُمْ نَدٌّ لَهُ وَ يَعِيشُونَ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ بَيْتِهِ. هُمْ كُلُّ مُجْتَمَعِهِ الْإِنْسَانِيّ فِي هَذَا المَكَانِ المُنْعَزِلِ عَنِ الدّنْيَا . يُرَاوِدُهُمْ - مِثْلَهُ - شَغَفٌ كَبِيرٌ بِالعِلْمِ وَ المَعْرِفَةِ لَكِنَّ حُظُوظَهُمْ لَمْ تَكُنْ أَوْفَرَ مِنْ حَظِّهِ . سَاوَى الوَادِي بَيْنَهُمْ فَأضحت أَحْلَامُهُمْ بِالمَدْرَسَةِ مُعَلّقَةً

بَيْنَ السّمَاءِ وَ الأَرْضِ وَ الدُّعَاءِ وَ الاسْتِحَالَةِ لَكِنَّهُمْ ظَلُّوا أَوْفِيَاءَ لِأَمَانِيهِمْ رَغْمَ السّجْنِ العَصِيّ الذِّي قَبَعَتْ فِيهِ .

كَانَتِ الطّرِيقُ بَيْنَ البَيْتِ وَ الغَابَةِ التّي تَنْتَصِبُ فِيهَا الأَشْجَارُ طَوِيلَةً جِدًّا وَ خُطَى هَؤُلَاءِ البَرَاعِمِ صَغِيرَة وَ لَا تَسْتَطِيعُ طَيَّهَا سَرِيعًا فَفَضلُوا الرَّكْضَ عَلَى الْمَشْيِ . تَرَاءَتْ لَهُمُ الأَشْجَارُ مِنْ بَعِيدٍ وَ هِيَ تَهْوِي عَلَى الأَرض فَتَدُكُّهَا دَكًّا . وَقَفُوا قَلِيلًا يُتَابِعُونَ الأَغْصَانَ لَحْظَةً انْفِصَالِهَا عَنِ الْجُذُوعِ وَ هِيَ تَتَحَرّكُ يَمْنَةً وَ يَسْرَةً كَأَنَّهَا تُعْلِنُ مَوْتَهَا فَتُلَوّحُ لِلْكَوْنِ مُوَدِّعَةً .

بَلَغُوا المَكَانَ فَصَافَحُوا الْعَمَّ أَمَادُوا وَ جَلَسُوا عَلَى الجُذُوعِ الَّتِي انْتَشَرَتْ فِي أَرْجَاءِ الغَابَةِ بَعْدَ أَنْ عَبَثَ الفَأْسُ وَ المِنْشَارُ بِرُؤُوسِهَا أَمَّا آدَامُ فَقَدْ انْطَلَقَ نَحْوَ وَالِدِهِ وَاسْتَأْنَفَ عَمَلَهُ . أَخَذَ يُثْبِتُ فَأْسَهُ الصّغِيرَةَ فِي الجِذْعِ العِمْلَاقِ وَ يُحَاوِلُ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى صَلَابَتِهِ . بَثَّ فِي سَاعِدَيْهِ الصّغِيرَتَيْنِ كُلّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ . انْهَمَكَ فِي العَمَلِ وَ زَادَ عَزْمُهُ مَعَ هُتَافَاتِ أَصْدِقَائِهِ الَّذِينَ مَا انْفَكُّوا يُكْبِرُونَ فِيهِ رُوحَ القُوَّةِ وَ التَّحَدِّي .

بَدَأَ التّعَبُ يُرَاوِدُ جَسَدَهُ الغَضَّ وَ اعْتَرَفَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ بِحَجْمِ الجُهْدِ الذِّي يَبْذُلُهُ وَالِدُهُ مِنْ أَجْلِهِ كُلَّ يَوْمٍ دُونَ أَنْ تَفْتُرَ عَزَائِمَهُ أَوْ يَرْكُنَ إِلَى الرّاحَةِ .

لَاحَظَ أَمَادُو التّعَبَ وَ هُوَ يَغْزُو هَيْكَلَ وَلَدِهِ فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَرِيحَ قَلِيلًا عَلَى إِحْدَى الجُذُوعِ حَيْثُ جَلَسَ رِفَاقُهُ . لَمْ يَتَرَدَّدِ الطِّفْلُ فَتَوَجَّهَ إِلَى أَقْرَبِ جِذْعٍ وَ تَهَالَكَ عَلَيْهِ . كَانَ يَرْقُبُ الفَأْسَ وَهِيَ تَسْتَعْمِرُ الجِذْعَ فَتَخَيّلَهَا قَلَمًا يَقَعُ عَلَى وَرَقَةٍ فَتَسْتَحِيلُ خُطُوطًا عَظِيمَةً تَظَلُّ خَالِدَةً رَغْمَ صِغَرِهَا وَ يَظَلُّ مَنْ خَطَّهَا حَاضِرًا فِي أَذْهَانِ الْبَشَرِ لَا يَغِيبُ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهِ .

سَبّحَ فِي خَيَالِهِ وَ نَسِيَ أَنَّهُ بَيْنَ رِفْقَتِهِ المُحَبّبَةِ إِلَيْهِ فَقَامَ وَ رَفَعَ عَيْنَيْهِ إِلَى هَامَاتِ الأَشْجَارِ وَ تَذَكَّرَ نَفْسَهُ وَهُوَ يُخَاطِبُ الوَادِي وَ كَيْفَ تَحَرَّكَتِ الشّجَرَةُ بِكِيَانِهِ وَ هَزّتْهُ بِشِدَّةٍ فَصَاحَ مُجَدَّدًا كَأَنّمَا يَعِيشُ كَابُوسَهُ حَقِيقَةً فِي وَضَحِ النَّهَارِ . هَرَعَ إِلَيْهِ وَالِدُهُ وَ أَصْحَابَهُ وَ سَأَلُوهُ وَ قَدْ اِتّحَدَتْ أَصْوَاتُهُمْ :

- مَا خَطْبُكَ يَا آدَامُ ؟ هَلْ أَنْتَ بَخَيْرٍ ؟

رَدَّ وَ هُوَ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ مُحَاوِلًا إبْعَادَ صُورَةِ الشَّجَرَةِ التّي كَادَتْ تَهْوِي بِهِ إلَى قَعْرِ الوَادِي السَّحِيقِ عَنْ ذَاكِرَتِهِ :

- لَا شَيْءَ . لَا تَنْزَعِجُوا .

كَانَ قَدْ أَحَسَّ بِقُشَعْرِيرَةٍ حَارِقَةٍ تَسْرِي فِي كَامِلِ جَسَدِهِ فَاسْتَأْذَنَ وَالِدَهُ بِالانْصِرَافِ . غَادَرَ المَكَانَ صُحْبَةَ أَصْدِقَائِهِ . حَاوَلُوا مَعْرِفَةَ سِرَّ مَا حَدَثَ لَكِنَّهُ لَمْ يُخْبِرْهُمْ وَ وَعَدَهُمْ أَنْ يَحْكِي لَهُمْ كُلَّ مَا رَآهُ فِي الغَدِ قُرْبَ الوَادِي.

أَلْفَى أمَّهُ عِنْدَ البَابِ فَتَقَدَّمَ مِنْهَا وَ قَبَّلَهَا ثُمَّ دَلَفَ إلَى حُجْرَتِهِ لِيَرْتَاحَ بَعْضَ الْوَقْتِ . تَبِعَتْهُ وَ قَدْ لَمَحَتْ عَلَى وَجْهِهِ شُحُوبًا لَمْ تَعْهَدْهُ مِنْ قَبْلُ . دَخَلَتْ غُرْفَتَهُ وَ جَلَسَتْ إلَى جَانِبِهِ ثُمَّ سَأَلَتْهُ :

- مَا بِكَ يَا آدَامُ . أَ لَازِلْتَ مُتَأَثِّرًا بِكَابُوسِ البَارِحَةِ ؟

لَمْ يَتَعَوَّدْ أَنْ يُخْفِيَ عَنْهَا أَمْرًا فَنَظَرَ إلَيْهَا وَ قَالَ:

- نَعَمْ يَا أُمِّي . لَقَدْ سَخِرَ مِنِّي الوَادِي وَ دَكَّ بِي الأَرْضَ. إنِّي أُنْكِرُ الهَزِيمَةَ . لاَ بُدَّ أَنْ أَنْتَصِرَ .

كَانَتْ أُمُّهُ تُنْصِتُ إلَيْهِ مَشْدُوهَةً ثُمَّ قَالَتْ:

- احْذَرْ يَا بُنَيَّ فَإنَّ الكَوَابِيسَ غَيْرُ الوَاقِعِ . الوَادِي قَرَارٌ جَامِدٌ لَا يَنْطِقُ أَبَدًا . انْسَ مَا رَأَيْتَ وَ اقْبِلْ عَلَى الحَيَاةِ بِصَدْرٍ رَحْبٍ .

طَأْطَأَ رَأْسَهُ وَ قَالَ:

- الوَادِي قَعْرٌ صَامِتٌ لَكِنَّهُ حَالَ بَيْنِي وَ بَيْنَ أَحْلَامِي . لَقَدْ جَعَلَ المَدْرَسَة أُمْنِيَةٌ لَا تُطَالُ رَغْمَ قُرْبِهَا . أَلَسْتُ مَهْزُومًا يَا أُمِّي ؟ لَقَدْ كَبَّلَنِي وَ أَكّدَ أُمِّيَتِي فَأَيُّنَا الْأَقْوَى ؟

قَالَتْ لَهُ وَ هِيَ تَرْنُو إِلَيْهِ بِعَيْنٍ حَزِينَةٍ وَ قَدْ أَدْرَكَتْ مَدَى تَحَرُّقِ ابْنِهَا وَ حِرْصِهِ عَلَى العِلْمِ رَغْمَ السِّنِين الّتي ضَاعَتْ دُونَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الإلْتِقَاءِ بِبَابِ المَدْرَسَة وَ مُعَلِّمِيهَا وَ طُلَّابِهَا :

- أَنْتَ الأَقْوَى يَا بُنَيّ . أَنْتَ قَوِيٌّ بِحُسْنِ سِيرَتِكَ وَ حِكْمَتِكَ وَ شَجَاعَتِكَ أَمَّا كَوْنُ المَدْرَسَةِ مَكَانًا تَعَذَّرَ عَلَيْنَا الوُصُولُ إِلَيْهِ فَذَاكَ مِنَ القَدَرِ . هَذِهِ أَرْضُنَا وَ هَذَا مَنْزِلُنَا فَلَا مَفَرَّ .

رَدَّ الّطِّفْلُ وَ هُوَ يُخْفِي عَبَرَاتِهِ :

-أَنْ نَرْضَى وَ نَخْضَعَ لِمَا يَحْجُبُ عَنَّا نُورَ الدُّنْيَا فَذَاكَ عَيْنُ الانْـهِزَامِ يَا أُمِّي .

رَدَّتْ تَانْيَا وَ هِيَ تُحَرِّكُ رَأْسَهَا وَ كَأَنَّهَا قَدْ اقْتَنَعَتْ بَعْضَ الشَّيْءِ بِمَا قَالَهُ ابْنُهَا :

- وَ هَلْ مِنْ حَلٍّ أَمَامَ هَذَا الوَاقِعِ المُرِّ ؟

اسْتَقَامَ فِي جِلْسَتِهِ وَ أَجَابَهَا وَ فِي صَوْتِهِ نَبْرَة ثِقَةٍ فِي النَّفْسِ لَا تَنْكَسِرُ :

- أَنَا يَا أُمِّي بَهَذِهِ الأَكُفّ وَ هَذَا السَّاعِدِ سَأُعْدِمُ الوَادِي وَ أَفْتَحُ لَنَا طَرِيقًا حُرَّةً مُنْطَلِقَةً نَحْوَ المَدْرَسَةِ.

اسْتَقَامَتِ الْأُمُّ وَ هِيَ تَتَهَيَّأُ لِلْخُرُوجِ ثُمَّ قَالَتْ:

- إِنْ شَاءَ اللهُ يَا بُنَيَّ . سَيَكُونُ النَّصْرُ حَلِيفَكَ وَ حَلِيفَنَا . مَعَكَ حَقٌّ . لَا حَيَاةَ لِمَنِ اسْتَكَانَ لِلْهَزِيمَةِ .

مَرَّ يَوْمُهُ هَادِئًا إِلَى أَنْ أَفَلَتِ الشَّمْسُ وَ اسْتَحَالَ الكَوْنُ جِسْمًا مُظْلِمًا.

كَانَ آدَامُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ يَوَدُّ لِقَاءً آخَرَ مَعَ الوَادِي. هُوَ يُرِيدُ أَنْ يَهْزِمَهُ حُلْمًا وَ وَاقِعًا فَنَفْسُهُ لَمْ تَتَقَبَّلِ الهَزِيمَةَ مَهْمَا كَانَتْ .

لَمْ يَكُنِ النَّوْمُ سَهْلَ المَنَالِ اللّيْلَةَ لِاخْتِلاَطِ أحْلاَمِهِ بِالوَعِيدِ وَ التَّحَدّي فَتَلاطَمَت أَفْكَارُهُ بَيْنَ الأَمَانِي وَ الصِّرَاعِ إلَى أنْ اسْتَسْلَمَ إلَى سَكِينَةِ النُّعَاسِ.

انْقَضَى اللّيْلُ سَرِيعًا فَدَاعَبَ النّورُ جُفُونَهُ وَ نَهَضَ . ظَلَّ بَعْضَ الوَقْتِ فِي مَكَانِهِ يَتَتَبَّعُ خُيُوطَ الشَّمْسِ وَ هِيَ تُسَجِّلُ حُضُورَهَا عَلَى الجُدُرَانِ وَ الأَغْصَانِ . تَبَسَّمَ لِلضَّوْءِ رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يُجَابِهْ الوَادِي البَارِحَةَ وَ لَمْ تَتَحَقَّقْ أُمْنِيَةُ الانْتِصَارِ عَلَيْهِ بَعْدُ .

كَانَ وَالِدُهُ قَدْ قَصَدَ الغَابَةَ مُنْذُ الْفَجْرِ وَقَدْ أَعْفَاهُ مِنَ العَمَلِ اليَوْمَ فَتَوَجَّهَ إلَى المَطْبَخِ حَيْثُ أمُّهُ وَ تَنَاوَلَ فَطُورَهُ عَلَى عَجَلٍ ثُمّ اسْتَأْذَنَهَا أنْ تُمَكِّنَهُ مِنْ بَعْضِ الحَلْوَى لِأَصْدِقَائِهِ ثُمَّ سَارَ نَحْوَ الوَادِي .

بَيْنَ الوَادِي وَ بَيْتِهِ طَرِيقٌ قَصِيرَةٌ سَهْلَةٌ تَحُفُّهَا الأَشْجَارُ مِنَ الجَانِبَيْنِ . كَانَ ادَامُ يُحِبّ السَّيْرَ فِيهَا وَيَسْتَمْتِعُ بِشَدْوِ العَصَافِيرِ التّي تَخَيَّرَتْ قِمَمَ الأَشْجَارِ مَسَاكِنَ لَهَا فَتُحْدِثُ حَرَكَتُهَا بَيْنَ الأَغْصَانِ وَ الأَوْرَاقِ أُنْسًا يُحِبُّهُ و يَحِنُّ إلَيْهِ .

****

لَمَّا بَلَغَ مُنْتَصَفَ الطّرِيقِ لَمَحَ أَصْدِقَاءَهُ يُلَوّحُونَ لَهُ مِنْ بَعِيدٍ فَابْتَهَجَ لِرُؤْيَتِهُمْ وَ حَثَّ خُطَاهُ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ .

كَانَ جُون وَ جَاكْ وَ دَانِي أصْدِقَاءَ حَمِيمينَ لِآدَام فَكَانَ لَا يُخْفِي عَنْهُمْ سِرًّا إِذْ وَجَدَ فِيهِمْ رِفْقَةً حَسَنَةً لِمَا تَحَلُّوا بِهِ مِنْ صِدْقٍ وَ وَفَاءٍ وَ شَهَامَةٍ فَكَانُوا رُوَّحا وَاحِدَةً مُتَّحِدَةً لِفِعْلِ الخَيْرِ وَ طَالَمَا شَدُّوا أزْرَ بَعْضِهِمْ وَ لَمْ يَخِبْ ظَنُ أَحَدِهِمْ بِالآخَرِ أَبَدًا .

قَدَّمَ آدَامُ قِطَعَ الحَلْوَى لِأَصْدِقَائِهِ فَشَكَرُوهُ ثُمَّ اسْتَأْنَفُوا سَيْرَهُمْ مُنْشِدِينَ بَعْضَ الأَغَانِي التّي تَرَدَّدَتْ عَلَى مَسَامَعِهِمْ فَحَفَظُوهَا وَ رَافَقَتْهُمْ فِي مَسِيرِهِمْ عِنْدَمَا تَسْعَدُ أَرْوَاحُهُمْ وَ تَأْنَسُ لِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ وَ رِقَّةِ السّمَاءِ .

بَلَغُوا المُنْبَسَطَ المُشْرِفَ عَلَى الوَادِي وَ ظَلُّوا بُرْهَةً مُحَدِّقِينَ فِي عُمْقِهِ وَ امْتِدَادِهِ فَتَمَثَّلَ لَهُمْ قُوَّةً خَارِقَةً رَمَتْ بِكُلّ طُمُوحَاتِهِمْ فِي القَعْرِ العَمِيقِ . أَمَّا آدَامُ فَقَدْ نَظَرَ إِلَى الهُوَّةِ وَ رَفَعَ يَدَهُ عَالِيًا ثُمَّ صَاحَ :

- لَنْ تَدُومِي . سَوْفَ أُطَوّعُكِ جِسْرًا لِمَطْمَحِي .

لَاحَظَ أَصْحَابُهُ حَمَاسَهُ العَجِيبَ وَ ثِقَتَه الكَبِيرَة بِقُدُرَاتِهِ فَتَذَكَّرُوا مَا كَانَ سَيَرْوِيهِ لَهُمْ . اخْتَارُوا الجُلُوسَ

تَحْتَ شَجَرَةٍ امْتَدَّ ظِلُّهَا فَحَجَبَ رُؤُوسَهُمْ عَنِ الشَّمْسِ . بَدَأَ آدَاُم يَسْرُدُ عَلَى مَسَامِعِهِمْ رُؤْيَاهُ فَأَنْصَتُوا إِلَيْهِ وَ هُمْ يُحَوِّلُونَ أَعْيُنَهُمْ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الوَادِي وَ الشَجَر و يَتَعَجَّبُونَ لِهَوْلِ مَا رَأَى . وَ مَا أَنْ اِنْتَهَى آدَاُم مِنْ قَصِّ مَا شَاهَدَ حَتَّى عَادَ الْأَطْفَالُ يَتَأَمَّلُونَ الوَادِي و السَّهْلَ المُقَابِلَ وَ مَا انْتَصَبَ فِيهِ مِنْ مَنَازِلَ وَ السَّفْح الأَخْضَر وَ المَدْرَسَة . قَالَ دَانِي وَ هُوَ يُخَطِّطُ التُّرَابَ بِسَبَّابَتِهِ :

ـ ذَاكَ العَالَمُ الكَبِيرُ المُمْتَدُّ أَمَامَنَا كَمْ أَهْوَى أَنْ أَزُورَهُ . أَظُنُّهُ مُخْتَلِفًا تَمَامًا عَنْ عَالَمِنَا .

رَدَّ جُونْ :

ـ إِنَّهُ كَوْنٌ آخَرُ لَا يُشْبِهُنَا حَسَبَ تَصَوُّرِي . هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ عَالَمٍ مُتَعَلِّمٍ وَ عَالِمٍ تَنَاسَتْهُ المَدْرَسَةُ مُنْذُ النّشْأَةِ الأُولَى .

أَمَّا جَاكْ فَلَمْ يَنْبُسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ وَ ظَلَّ جِدَارُ صَدْرِهِ يَرْتَفِعُ تَنَهُّدًا وَ هُوَ يُلْقِي نَظَرَهُ تُجَاهَ الجَبَلِ البَعِيدِ الذِّي وَقَفَتْ عَلَى سَفْحِهِ مَدْرَسَةُ الذُّكُورِ .

****

هَدَأَ المَكَانُ إِلَّا مِنْ زَقْزَقَةِ العَصَافِيرِ إِذْ سَبَحَ كُلٌّ مِنْهُمْ فِي خَيَالِهِ . حَاوَلَ آدَامُ قَطْعَ حَبْلِ الصَّمْتِ فَطَلَبَ مِنْ أَصْدِقَائِهِ أَنْ يُرَافِقُوهُ إِلَى الجَانِبِ الأَيْسَرِ مِنَ الوَادِي حَيْثُ يَتَرَاءَى العُمْقُ وَاضِحًا جَلِيًّا .

كَانَ الرَّبِيعُ فِي أَوَاخِرِهِ فَتَنَاقَصَ مَاءُ الوَادِي وَ بَدَأَتْ بَعْضُ جَوَانِبِهِ تَجِفُّ تَمَامًا بِمَفْعُولِ الحَرَارَةِ التّي كَانَتْ تَزْدَادُ شَيْئًا فَشَيْئًا مُنْبِئَةً بِاقْتِرَابِ الصَّيْفِ . نَظَرَ آدَامُ إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَ قَالَ :

ـ أَلَيْسَتْ هَذِهِ أُولَى هَزَائِمِهِ ؟ أَ لَمْ تَذْهَبِ الحَرَارَةُ بِمَائِهِ ؟ هَلْ اِسْتَطَاعَ التَّصَدّي لَهَا وَ هِيَ تَمْتَصُّهُ ؟ أَمَّا هَزِيمَتُهُ الثَّانِيَةُ فَسَتَكُونُ مِنْ صُنْعِ أَيَادِينَا ؟

قَالَ جَاكْ وَ قَدْ عَلَتْ وَجْهَهُ نَظْرَةُ اسْتِغْرَابٍ:

ـ أَ مُمْكِنٌ هَذَا؟ نَحْنُ مُجَرَّدُ أَجْسَادٍ صَغِيرَةٍ لَا يُمْكِنُهَا تَحَدّي كُلَّ هَذَا الحَجْمِ المُمَدَّدِ أَمَامَنَا .

قَالَ آدَامُ مُسْتَنْكِرًا كَلَامَ جَاكْ :

ـ أَ مُسْتَسْلِمٌ أَنْتَ قَبْلَ البَدْءِ ؟ اعْلَمْ جَيّدًا أَنَّ العِبْرَةَ بِالفِعْلِ وَ لَيْسَتْ بِالحَجْمِ فَكَمْ مِنْ نَمْلَةٍ هَزَمَتْ أَسَدًا . لَا بُدَّ مِنَ

الإيمَانِ بِقُدُرَاتِنَا وَ لتَنْسَ حَجْمَكَ الصّغِيرَ وَ تَذَكَّرْ دَائِمًا أَنَّ عَقْلَكَ وَ عَزْمَكَ الذّي لَا يَفْتُرُ هُمَا أَسَاسُ نَجَاحِكَ .

ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا :

- إذَا مَا نَحْنُ رَسَمْنَا حُلْمًا فِي أَذْهَانِنَا فَلَابُدَّ لِلصّعَابِ أَنْ تَزُولَ وَ أَنْ يُصْبِحَ مَا نَتَمَنَّاهُ وَاقِعًا جَمِيلًا نَعِيشُهُ.

نَظَرَ إلَيْهِ رِفَاقُهُ وَ قَالُوا :

- لَكِنْ اعْلَمْ يَا آدَامُ أَنَّ الصِّرَاعَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُ سَيَكُونُ شَاقًّا.

أَجَابَهُمْ قَائِلاً :

- الغَايَاتُ العَظِيمَةُ لَمْ تَكُنْ يَوْمًا سَهْلَةَ المَنَالِ وَ إنّي لَأَرَى فِي العِلْمِ أَعْظَمَ غَايَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُضَحّيَ الإنْسَانُ مِنْ أَجْلِهَا . فَقَطْ كُونُوا مَعِي رُوحًا وَ جَسَدًا وَ سَوْفَ نَصْنَعُ عَلَى أَنْقَاضِ هَذَا القَرَارِ العَمِيقِ حَقِيقَةً نَفْخَرُ بِهَا .

وَاصَلَ الأَصْدِقَاءُ حَدِيثَهُمْ وَ قَدْ أَقنعَهُمْ آدَامُ أَنَّ الإرَادَةَ إذَا مَا اتَّقَدَتْ تَصْنَعُ أَعْتَى المُعْجِزَاتِ وَ أَنَّ الحَاجِزَ مَهْمَا امْتَدَّ لاَ بُدَّ أَنْ يَضْمَحِلَّ أَمَامَ السَّوَاعِدِ الفَذَّةِ.

مَضَتْ سَاعَاتُ الصَّبَاحِ سَرِيعًا مَعَ الرِّفْقَةِ الطَّيِّبَةِ وَ الأَحْلاَمِ الزَّهْرِيَّةِ وَ انتَصَبَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ مُوَاصِلَةً إرْسَالَ أَشِعَّتِهَا عَلَى قَعْرِ الوَادِي تُجَفِّفُهُ وَ تُحَوِّلُ مَاءَهُ بُخَارًا .

أَحَسَّ آدَامُ وَ رِفَاقُهُ بِالجُوعِ فَكَانَ لِزَامًا عَلَيْهِمْ أنْ يَرْجِعُوا إلَى مَنَازِلِهِمْ . سَارُوا سَوِيًّا وَ تَبَادَلُوا أَطْرَافَ الحَدِيثِ إلَى أَنْ تَفَرَّقُوا وَ اتَّخَذَ كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَسْلَكًا تُجَاهَ بَيْتِهِ وَ قَدْ تَوَاعَدُوا عَلَى لِقَاءِ آخَرَ قَرِيبٍ .

رَحَّبَتْ تَانْيَا بِوَلَدِهَا وَ رَافَقَتْهُ إلَى المَطْبَخِ . غَسَلَ يَدَيْهِ ثُمَّ جَلَسَ إلَى الطَّاوِلَةِ . كَانَ الأَكْلُ شَهِيًّا طَيِّبًا وَ قَدْ سَعَتِ الْأُمُّ أنْ تُحْضِرَ وَجبَةً مُحَبَّبَةً لِطِفْلِهَا . اسْتَقَرَّ طَبَقُ السَّمَكِ الشّهِيّ أَمَامَ آدَام فَتَنَاوَلَ قِطْعَةً وَ ابْتَسَمَ لِأُمِّهِ شَاكِرًا ثُمَّ قَالَ :

ـ أَدَامَكِ اللهُ يَا حَبِيبَتِي . طَعَامُكِ طَيِّبٌ كَمَا رُوحُكِ. إنِّي أَهْوَى هَذَا الطَّبَقَ .

انْشَرَحَتْ أُمُّهُ لِكَلاَمِهِ البَرِيءِ الصَّادِقِ وَ قَالَتْ :

ـ أَنْتَ طِفْلٌ مُؤَدَّبٌ وَ تَسْتَحِقُّ كُلَّ الحُبِّ وَ الخَيْرِ . ثُمَّ نَهَضَتْ وَ أَحْضَرَتْ إنَاءَ عَصِيرٍ طَازِجٍ وَ قَدَّمَتْهُ لَهُ فَتَنَاوَلَهُ وَ قَامَ لِيُقَبِّلَهَا عَلَى جَبِينِهَا ثُمَّ قَالَ :

ـ إِنَّكِ سَيِّدَةُ هَذَا الْكَوْنِ و مَلَاكِيَ الطَّاهِرُ . كَمْ أُحِبُّكِ يَا أُمِّي .

انْتَهَى آدَامُ مِنَ الأَكْلِ ثُمَّ خَرَجَ يَتَأَمَّلُ الطَّبِيعَةَ الغَنَّاءَةَ وَ قَدْ شُغِفَ حُبًّا بِعُلُوِّ الجَبَلِ وَ اقْتِرَابِهِ مِنَ الأُفُقِ الرَّحْبِ. كَمْ تَخَيَّلَ نَفْسَهُ طَائِرًا حُرًّا يَضْرِبُ بِجَنَاحَيْهِ فَيَسْتَحِيلُ الكَوْنُ عَلَى اتِّسَاعِهِ مَكَانًا يَسِيرَ البُلُوغِ كُلَّمَا تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى ذَلِكَ .أَحَبَّ شُمُوخَ الجِبَالِ لِشُمُوخِ رُوحِهِ وَ تَعَالِيهَا عَنْ وَضَائِعِ الأُمُورِ وَ تَمَنَّى الطَّيَرَانَ للْحُرِّيَةِ السَّاكِنَةِ فِيهِ رَغْمَ صِغَرِ سِنِّهِ .

مَرَّتْ أَسْرَابٌ مِنَ الحَمَائِمِ البِيضِ فَتَتَبَّعَهَا آدَامُ بِنَظَرِهِ وَ هِيَ تَسْبَحُ فِي الفَضَاءِ مُتَمَايِلَةً بِأَجْنِحَتِهَا المُنْبَسِطَةِ فِي السَّمَاءِ إِلَى أَنِ اخْتَفَتْ بَيْنَ الأَشْجَارِ .

بَقَيَ يَمُدُّ بَصَرَهُ إِلَى الفَضَاءِ المُنْفَصِلِ عَنِ الْأَرْضِ حَتَّى وَصَلَ وَالِدُهُ بَعْدَ يَوْمٍ شَاقٍّ قَضَّاهُ بَيْنَ الأشجار وَالأَغْصَانِ . شَدَّ الحِمَارَ إِلَى أَحَدِ الجُذُوعِ ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى حَيْثُ وَلَدُهُ . هَرْوَلَ إِلَيْهِ آدَامُ وَ انْحَنَى علَى يَدِهِ يُقَبِّلُهَا

ثُمَّ قَالَ :

أَهْلًا بِكَ أَبِي . لَقَدْ تَأَخَّرْتَ كَثِيرًا اليوْم .

رَدَّ أَمَادُو وَ قَدْ أَخَذَ مِنْهُ التَّعَبُ مَأْخَذًا كَبِيرًا :

- أَيْ وَاللهِ . لَقَدْ كَانَ يَوْمِي شَاقّا . كَانَتِ الجُذُوعُ أَكْبَرَ مِما تَصَوَّرْتُ . هَلُمَّ بِنَا إِلَى الدَّاخِلِ أَرْوِي لَكَ حِكَايَتِي مَعَ الأَشْجَارِ اليَوْمَ .

تَبِعَهُ آدَامُ وَ بَعْدَ أَنْ تَنَاوَلَ الأَبُ غَدَاءَهُ جَلَسَا سَوِيًّا وَ تَجَاذَبَا أَطْرَافَ الحَدِيثِ فَأَمَادُو طَالَمَا اعْتَبَرَ ابْنَهُ - رَغْمَ حَدَاثَةِ سِنِّهِ - رَجُلًا مِقْدَامًا وَ صَاحِبَ رَأْيٍ سَدِيدٍ فَاتَّخَذَهُ صَدِيقًا حَمِيمًا وَ رَفِيقًا يَحْلُو مَعَهُ السَّمَرُ .

غَفَا أَمَادُو وَ تَانْيَا أَمَّا آدَامُ فَقَدِ اِتَّجَهَ نَحْوَ شَجَرَتِهِ المُفَضَّلَةِ وَ تَمَدَّدَ تَحْتَ ظِلِّهَا كَمَا تَعَوَّدَ أَنْ يَفْعَلَ . حَدَّثَهَا عَنْ كَابُوسِهِ وَ الوَادِي اللَّئِيمِ الذِّي زَعْزَعَ بِهِ الجِذْعَ وَ كَادَ أَنْ يُوقِعَهُ فِي جَوْفِهِ العَمِيقِ . اسْتَمَرَّ يُخَاطِبُ أَغْصَانَهَا وَ أَوْرَاقَهَا ثُمَّ أَخَذَ غُصْنًا صَغِيرًا جَافًّا و جَعَلَ يَرْسُمُ خُطُوطًا تَشَكَّلَتْ قَرَارًا عَمِيقًا ثُمَّ مَدَّ الغُصْنَ جِسْرًا فَوْقَهَا وَ أَخَذَ يُدَقِّقُ النَّظَرَ فِي مَا أَنْشَأَ إِلَى أَنْ اسْتَسْلَمَ لِلنُّعَاسِ .

بَدَأَتِ الشَّمْسُ تَمِيلُ إِلَى الغُرُوبِ وَ تَتَخَلَّى عَنْ شُعَاعِهَا الأَنِيقِ شَيْئًا فَشَيْئًا فَاسْتَيْقَظَ آدَامُ وَ عَادَ إِلَى المَنْزِلِ . وَجَدَ وَالِدَيْهِ أَمَامَ البَيْتِ مُحَاوِلَيْنِ رَفْعَ حَبْلٍ

أَعْلَى شَجَرَةٍ فَأَسْرَعَ إِلَيْهِمَا وَ اسْتَأْذَنَهُمَا فِي أَنْ يَتَوَلَّى هُوَ هَذِهِ الْمُهِمَّةِ . لَمْ يَتَرَدَّدْ أَمَادُو إِذْ طَالَمَا أَثْبَتَ آدَامُ مَهَارَتَهُ فِي تَسَلُّقِ الأَشْجَارِ . وَ بِسُرْعَةٍ اِعْتَلَى الشَّجَرَةَ وَ رَبَطَ فِيهَا الحَبْلَ الذِّي سَيُوصِلُهُ أَبُوهُ فِيمَا بَعْدُ بِالسَّطْحِ.

نَظَرَ الطِّفْلُ مِنْ أَعْلَى الشَّجَرَةِ فَتَرَاءَتْ لَهُ الشَّمْسُ قُرْصًا أَحْمَرَ يَسِيرُ إِلَى أَسْفَلِ الأُفُقِ فَرَاحَ يَتَتَّبَعُهَا بِعَيْنَيْهِ إِلَى أَنْ غَاصَتْ خَلْفَ الجَبَلِ . عِنْدَهَا نَزَلَ وَجَلَسَ رِفقَةَ أَبَوَيْهِ أَمَامَ المَنْزِلِ حَيْثُ اِحْتَسوا قَهْوَتَهُمُ المَسَائِيَّةَ ثُمَّ دَخَلُوا البَيْتَ لِلِقَاءِ لَيْلٍ جَدِيدٍ .

رَكَنَ آدَامُ إِلَى فِرَاشِهِ آمِلًا أَنْ يُوَاجِهَ الوَادِي فِي حُلْمِهِ وَ يُحَقِّقَ نَصْرَهُ وَ ظَلَّ يُفَكِّرُ وَ عُذُوبَةُ الإِنْتِصَارِ تُرَاوِدُ خَيَالَهُ فَيَبْتَسِمُ وَ يَرْفَعُ بَصَرَهُ نَحْوَ العُلُوِّ الذِّي مَا فَتِئَ يَرْنُو إِلَيْهِ بِعُيُونٍ حَالِمَةٍ .

سَرَى النُّعَاسُ إِلَى جَفْنَيْهِ وَ اسْتَمَرَّ نَوْمُهُ هَادِئًا إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّ الوَادِي أَمَامَهُ وَ قَدِ ارْتَفَعَ صَوْتُهُ مُقَهْقِهًا :

- أَيْنَ أَنْتَ أَيُّهَا المُغَفَلُ ؟ إِنِّي أَرَاكَ تَهْذِي وَ تَبْنِي أَخْطَاءً مِنْ أَحْلَامِكَ المُشَوَّهَةِ . أَيُّ حُرِّيَةٍ تِلْكَ التِّي سَتُؤَسِّسُهَا عَلَى أَنْقَاضِي ؟ مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَسْتَيْقِظَ مِنْ غَفْوَتِكَ . أَنَا

سَيِّدُكَ وَ سَيِّدُ أَسْيَادِكَ . مُتَجَذِّرٌ أَنَا فِي هَذِهِ الأَرْضِ مُنْذُ الأَزَلِ أَيُّهَا البُرْعُمُ الصَّغِيرُ . حَذَارِ أَنْ تَتَشَدَّقَ بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . ثُمَّ بَعَثَ نَفَسًا مِنْ جَوْفِهِ الهَائِلِ مُحَاوِلًا جَذْبَ الطِّفْلِ إِلَى الْقَاعِ .

لَمْ يَتَأَثَّرْ آدَامُ بِكَلَامِ الوَادِي وَ لَا بِزَأْرَتِهِ المُدَوِّيَةِ بَلْ رَمَقَهُ بِنَظْرَةِ ازْدِرَاءٍ ثُمَّ تَبَسَّمَ وَاثِقًا وَ قَالَ :

ـ حَجْمُكَ لَا يُرْعِبُنِي وَ أَحْلَامِي سَتَسْتَحِيلُ وَاقِعًا عَلَى أَنْقَاضِ غُرُورِكَ أَيُّهَا السَّحِيقُ.

مَدَّ آدَامُ سَاعِدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ فَتَحَوَّلَتَا جَنَاحَيْنِ بِحَجْمِ الفَضَاءِ الرَّحْبِ . حَرَّكَ جَنَاحَيْهِ فَطَارَ عَالِيًا وَ رَفْرَفَ فَوْقَ الوَادِي بِقُوَّةٍ رَفَعَتْ كُلَّ أَتْرِبَتِهِ وَ صَخْرِهِ إِلَى الفَضَاءِ ثُمَّ عَادَتْ لِتَرْتَطِمَ بِالقَاعِ وَ قَدْ تَشَقَّقَتْ أَطْرَافُهُ . وَ رَغْمَ كُلِّ الْقُوَّةِ التِي امْتَلَكَهَا آدَامُ فَإِنَّهُ احْتَفَظَ بِهُدُوءِ الحُكَمَاءِ الذِّي طَالَمَا رَافَقَهُ ثُمَّ ضَمَّ جَنَاحَيْهِ وَ اسْتَقَامَ يَرْقُبُ الوَادِي وَ قَدْ أَخَذَهُ الهَلَعُ وَ الحَيْرَةُ فَلَمْ يَتَكَلَّمْ بَلِ الْتَزَمَ الصَّمْتَ وَ السُّكُونَ .

مَرَّ الحُلْمُ وَ انْتَهَى اللَّيْلُ وَ قَدْ سَلَّمَ المِشْعَلَ إِلَى النَّهَارِ لِيُوَاصِلَ رِحْلَةَ الزَّمَنِ اللَّامُتَنَاهِيَةِ .

عُصْفُورٌ صَغِيرٌ يَنْقُرُ زُجَاجَ النَّافِذَةِ نَقَرَاتٍ خَفِيفَةً مُتَوَاصِلَةً أَيْقَظَ آدَامُ . ابْتَسَمَ لِلطَّائِرِ وَ حَيَّاهُ . اتَّجَهَ إِلَى حَيْثُ أُمُّهُ و قَضَى حَاجِيَّاتِهِ فِي سُرْعَةِ البَرْقِ ثُمَّ أَخَذَ فَأْسَهُ وَ مَضَى إِلَى الغَابَةِ لِيُسَاعِدَ أَبَاهُ . رَأَى صَدِيقَهُ جُونْ مِنْ بَعِيدٍ فَأَسْرَعَ إِلَيْهِ و وَاصَلَا الطَّرِيقَ مَعًا .

أَلْفَيَا أَمَادُو يُصَارِعُ الأَشْجَار وَ يُحَاوِلُ الإِيقَاعَ بِهَا أَرْضًا وَ قَدْ ثَبَتَ عَزْمَهُ جَبَلاً لاَ يَهِنُ . اقْتَرَبَا مِنْهُ فَابْتَسَمَ لِرُؤْيَتِهِمَا ثُمَّ تَنَحَّى جَانِبًا .وَ تَرَكَ مَيْدَانَ الصَّرَاعِ لابْنِهِ واتَّخَذَ هُوَ مَكَانًا إِلَى جَانِبِ جُونْ حَيْثُ رَاقَبَ وَلَدَهُ وَ هُوَ يُبَاشِرُ عَمَلَهُ مِنْ بَعِيدٍ.

أَمْسَكَ آدَامُ المِقْبَضَ بِقُوَّةٍ وَ انْطَلَقَ يَهْوِي عَلَى الجِذْعِ بِمِعْوَلِهِ الصَّغِيرِ . كَانَ يُثَبِّتُ فَأْسَهُ فِي الخَشَبِ وَ يَتَذَكَّرُ جِدَالَهُ مَعَ الوَادِي وَ كَيْفَ أَرْدَاهُ ذَلِيلًا فِي قَاعِهِ وَ كَيْفَ أَثْبَتَ لَهُ أَنْ لَا شَيْءَ يَقِفُ أَمَامَ هِمَّتِهِ المَشْحُونَةِ بِالإِرَادَةِ وَ الأَمَلِ فَتَحَوَّلَتْ ضَرَبَاتُهُ صَاعِقَةً لَا تُرَدُّ إِلَى أَنْ تَرَاخَتِ الشَّجَرَةُ عَلَى عَظَمَتِهَا أَمَامَ سَاعِدِهِ الصَّغِيرَةِ .

وَقَفَ أمَادُو وَ جُونْ وَ قَدْ أَخَذَتْهُمَا الدّهْشَةُ لِمَا فَعَلَهُ المِعْوَلُ الصَّغِيرُ وَ القَبْضَةُ الغَضَّةُ بِالجِذْعِ الهَائِلِ وَ أَخَذَا يُصَفِّقَانِ ابْتِهَاجًا ثُمَّ جَرَى الأَبُ نَحْوَ ابْنِهِ وَ رَفَعَهُ عَالِيًا وَ قَالَ :

ـ مَكَانُكَ الأَعَالِي أَيُّهَا المِقْدَامُ الفَذُّ . مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِكُلِّ هَذِهِ القُوَّةِ ؟ مَا شَاءَ اَللَّهُ !إنَّا رَأَيْنَاكَ جَبَلاً يَهْوِي عَلَى قُبُّرَةٍ . سَلَّمَكَ اللهُ يَا بُنَيَّ .

ثُمَّ أَنْزَلَهُ فَرَدَّ الطِّفْلُ :

- إِنّي لَمَشْحُونٌ بِأَحْلَامِي . لَقَدْ أَضْحَتْ الإِرَادَةُ تَسْرِي فِي شَرَايِينِي . هَزَمْتُ الجِذْعَ وَ سَأَهْزِمُ الوَادِي تَمَامًا كَمَا لَطَّخْتُ وَجْهَهُ بِالذُّلِّ فِي مَنَامِي البَارِحَةَ .

تَعَجَّبَ الأَبُ مِنْ كَلَامِ الصَّبِيِّ فَتَرَاجَعَ عَنْ حَمْلِ الفَأْسِ وَ تَقَدَّمَ مُسْتَفْسِرًا عَمَّا سَمِعَ . جَلَسُوا جَمِيعًا تَحْتَ شَجَرَةِ وَ طَفِقَ آدَامُ يَرْوِي مَنَامَهُ . أَنْصَتُوا إِلَيْهِ مُعْجَبِينَ مُتَعَجِّبِينَ إِلَى أَنْ أَنْهَى حَدِيثَهُ . عِنْدَهَا قَالَ الأَبُ:

- مَا أَرْوَعَ هذا الحُلْمَ وَ مَا أَبْهَاهُ يَا ولَدِي لَكِنَّهُ يَبْقَى ضَرْبًا مِنَ الخَيَالِ نَأْمَلُ أَنْ يَسْتَقِرَّ وَاقِعًا عَلَى أَرَاضِينَا . جَثَمَ الوَادِي أَمَامَنَا فَعَزَلَنَا وَ هَزَمَنَا فَيَا لَيْتَ آمَالَكَ تَتَحَقَّقُ فَيَسْعَدَ عَالَمُنَا الصَّغِيرُ وَ تَضْحَى السَّبِيلُ حُرَّةً لَا قَيْدَ عَلَى مِعْصَمِهَا .

اِبْتَسَمَ آدَامُ انْتِشَاءً بِالأَمَلِ الذّي اِسْتَشْعَرَهُ مِنَ كَلَامِ وَالِدِهِ ثُمَّ قَالَ :

- إِنَّ الحُلْمَ يُصْبِحُ حَقِيقَةً إِذَا مَا وَثِقْنَا بِهِ وَ إِنّي لَوَاثِقٌ مِنْ حُلْمِي وَ مِنْ إِرَادَتِي وَ سَوْفَ تَرَى يَا أَبِي بِأُمِّ عَيْنَيْكَ كَيْفَ تَسْتَحِيلُ الهُوَّةُ مُنْبَسَطًا .

عِنْدَهَا نَظَرَ جُونْ إِلَى صَدِيقِهِ وَ قَالَ :

- إنّي رَفِيقُكَ فِي رِحْلَتِكَ هَذِهِ وَ لنَجْعَلْ مِنَ السَّاعِدِ سَوَاعِدَ فَبِالتَّعَاوُنِ تُذَلَّلُ الصِّعَابُ .

عَادَ أمَادُو إلَى الجُذُوعِ يُسَلِّطُ عَلَيْهَا ضَرَبَاتِهِ بَعْدَ أَنْ غَادَرَهُ الطِّفْلاَنِ وَ قَدْ أَذِنَ لابْنِه بالانْصِرَافِ كَمُكَافَأَةٍ عَلَى جُهْدِهِ الْكَبِيرِ . سَارَ الوَلَدَانِ فِي اتِّجَاهِ الوَادِي وَ قَدْ زَرَعَ الحُلْمُ الجَمِيلُ فِي نَفْسِ ادَامَ رَغْبَةً جَامِحَةً فِي رُؤْيَةِ الغَوْرِ مَرَّةً أُخْرَى .

حَلَّا بِالمَكَانِ فَنَظَرَ آدَامُ إلَى السَّفْحِ الأَخْضَرِ وَ الجُدْرَانِ البِيضِ التّي احْتَوَتْ الطُّلاَبَ وَ قَالَ وَ هُوَ يُخَاطِبُ جُونْ :

- أُنْظُرْ المَدْرَسَةَ تُشِعُّ مِنْ بَعِيدٍ . أ هُوَ نُورُ العِلْمِ يَنْبَثِقُ مِنْ كَيَانِهَا فَيُنِيرُ الدُّرُوبَ ؟

رَدَّ جُونْ :

- إنّي أرَاهَا شَامِخَةً شُمُوخَ الجَبَلِ الذّي أُقِيمَتْ عَلَى سَفْحِهِ . فِيهَا يُهْدَى العِلْمُ لِطَالِبِيهِ فَيَا لَيْتَنَا نُصْبِحُ مِنْ طُلاَّبِهِ .

وَاصَلاَ حَدِيثَهُمَا ثُمَّ اسْتَلْقَيَا تَحْتَ شَجَرَةٍ يَرْمُقَانِ الأُفُقَ بِمُقَلٍ يَمْلَؤُهَا الأَمَلُ وَ ظَلاَّ صَامِتَيْنِ بُرْهَةً يَتَأَمَّلاَنِ

الطُّيُورَ وَ هِيَ تَنْتَقِلُ مِنَ الوَادِي إِلَى الجَبَلِ فَتَرْتَسِمُ الحُرِّيةُ عَلَى أَجْنِحَتِهَا فَضَاءً مَفْتُوحًا لَا حَدَّ لَهُ وَ سَبَحَا فِي بَحْرِ الأَمَانِي .

اِخْتَرَقَ نِدَاءٌ مِنْ بَيْنِ الأَشْجَارِ جِدَارَ الصَّمْتِ فَجَلَسَ آدَامُ وَ جُونْ وَ التَفَتَا فَإِذَا هُمَا جَاكْ وَ دَانِي قَدْ إِلتَحَقَا بِهِمَا .

جَلَسَ الجَمِيعُ فَحَدَّثَهُمْ آدَامُ عَنْ حُلْمِ الفَوْزِ وَ العَظَمَةِ فابْتَهَجُوا لِمَا سَمِعُوه ثُمَّ سَارُوا نَحْوَ الجَانِبِ الأَيْسَرِ مِنَ الوَادِي العَمِيقِ فَنَظَرَ دَانِي وَ قَالَ :

- إنَّ هَذَا الجَانِبَ أَقَلّ عُمْقًا مِنَ الجَوَانِبِ الأُخْرَى فَلِمَ لَا نُحَاوِلُ اجْتِيَازَهُ فَنَتَمَكَّنَ مِنْ رُؤْيَةِ المَدْرَسَةِ .

رَدَّ الجَمِيعُ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ :

- وَ لِمَ التَّرَدُّدُ لِنُحَاوِلِ الآنَ . مَاذَا نَنْتَظِرُ ؟

كَانَ اِلوَادِي قَدْ فَقَدَ الكَثِيرَ مِنْ مَائِهِ مَعَ دُنُوِّ فَصْلِ الصَّيْفِ غَيْرَ أَنَّ صُخُورَهُ الضَّخْمَةَ حَافَظَتْ عَلَى صَلَابَتِهَا وَ حِدَّتِهَا وَ مَكَانِهَا وَ رَغْمَ شَكْلِهَا المُخِيفِ بَدَأَ الأَطْفَالُ فِي النُّزُولِ .

سَبَقَ جُونْ أَصْحابَه وَ قَدْ شَدَّهُ الحَمَاسُ إِلَى مُلَامَسَةِ الصُّخُورِ وَ تَجَاوُزِهَا . تَبِعَهُ أَصْدِقَاؤُهُ لَكِنَّهُ كَانَ أَسْرَعَهُمْ فَشَقَّ المُنْحَدَرَ الوَعْرَ شَقًّا بِقَدَمَيْهِ . لَمْ يَكْتَرِثْ لِدَوَائِرِ الطَّحَالِبِ التّي انْتَشَرَتْ عَلَى الصَّخْرِ كَأَنَّهَا نَسْجُ العَنْكَبُوتِ وَ وَاصَلَ الهُبُوطَ . فَجْأَةً انْزَلَقَ وَ هَوَى بَيْنَ الصُّخُورِ .حَاوَلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ كَانَتْ قَدْ شَقَّتْ مَكَانًا بَيْنَ الحِجَارَةِ إِلَّا أَنَّ حَجْمَهُ الصَّغِيرَ لَمْ يُمَكِّنْهُ مِنَ الوُصُولِ إِلَيْهَا . صَاحَ مُسْتَغِيثًا غَيْرَ أَنَّ انْحِدَارَهُ المُفَاجِئَ كَانَ أَسْرَعَ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ يَبْلُغَ صَوْتُهُ مَسْمَعَ رِفَاقِهِ .

تَوَقَّفُوا عَنِ الهُبُوطِ وَ قَدْ فَاجَأَهُمُ الدَّوِيُّ الهَائِلُ الذّي أَحْدَثَتْهُ الصَّيْحَةُ ثُمَّ التَفَتُوا فَرَأَوْا صَدَيقَهُمْ مُلْقَى بَيْنَ الصُّخُورِ وَ قَدْ تَخَضَّبَ جِسْمُهُ بِالدَّمِ . عَلَتْ صَيْحَاتُهُمْ فَرَدَّدَهَا الصَّدَى وَ بَلَغَتْ أَرْكَانَ الغَابَةِ . حَاوَلُوا جَاهِدِينَ النُّزُولَ وَ تَخْلِيصَ صَدِيقِهِمْ غَيْرَ أَنَّ شَبَكَةَ الطَّحَالِبِ التّي احْتَلَّتِ الصَّخْرَ جَعَلَتْ تَثْبِيتَ الأَقْدَامِ أمْرًا مُسْتَحِيلاً وَ مُجَرَّدَ خُطْوَةٍ خَاسِرَةٍ . عَاوَدُوا الصّيَاحَ مَرَّاتٍ وَ مَرَّاتٍ مُسْتَجْدِينَ رَجْعَ الصَّدَى أنْ يُبَلِّغَ صَوْتَهُمُ الْغَائِرَ لِذَوِيهِمْ أَوْ لِأَيّ عَابِرِ سَبِيلٍ قَدْ تَكُونُ نَجَاةُ صَدَيقِهِمْ عَلَى يَدَيْهِ ، وَ فِي الأَثْنَاءِ عَادُوا إلَى السَّهْلِ وَ ظَلُّوا يَصِيحُونَ وَ يَرْقُبُونَ هَيْكَلَ رَفِيقِهِمْ الذّي تَمَدَّدَ فِي القَاعِ بِلاَ حَرَاكٍ .

كَانَ أَمَادُو عَائِدًا إلَى بَيْتِهِ فَشَدَّ انْتِبَاهَهُ الصَّوْتُ الذّي تَلاَهُ الصَّدَى وَ كَرَّرَهُ مَرَّاتٍ مُتَتَابِعَاتٍ . عَرِفَ أَنَّ مَا تَرَدَّدَ كَانَ صِيَاحًا مُحَمَّلاً بِالخَوْفِ وَ الفَزَعِ فَلَمْ يَتَوَانَ فِي حَثِّ بَعْضِ الرِّجَالِ المُقِيمِينَ قُرْبَ الطَّرِيقِ المُؤَدِّيَةِ إلَى الوَادِي على أَنْ يُرَافِقُوهُ .

إعْتَلُوا ظُهُورَ أَحْمِرَتِهِمْ وَ انْطَلَقُوا نَحْوَ الوَادِي الكَبِيرِ وَ قَدْ رَاوَدَتْهُمْ مَخَاوِفُ شَتَّى . تَرَاءَى لَهُمُ الأَطْفَالُ مِنْ بَعِيدٍ . كَانَ أَمَادُو يَعْلَمُ أَنَّ جُونْ رَافَقَ اِبْنَهُ إلَى

الوَادِي هَذَا الصَّبَاحَ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ ضِمْنَ جَمْعِهِمْ عِنْدَهَا عَلِمَ أَنَّ أَمْرًا مَا حَلَّ بِالطِّفْلِ .

بَلَغُوا المَكَانَ فَوَجَدُوا الأَطْفَالَ فِي حَالَةِ فَزَعٍ وَ قَدْ عَلاَ الشُّحُوبُ وُجُوهَهُمْ . فَهَتَفُوا مَعًا :

- مَاذَا حَدَثَ ؟

أَمَّا أَمَادُو فَتَقَدَّمَ نَحْوَ الوَادِي وَ نَظَرَ لابْنِهِ قَائِلاً :

- أَيْنَ جُونْ ؟ أَ لَمْ يُرَافِقْكَ هَذَا الصَّبَاحَ ؟

أَرَادَ آدَامُ أَنْ يُجِيبَ غَيْرَ أَنَّ حَلْقَهُ المُخْتَنِقَ بِالدَّمْعِ لَمْ يُمَكِّنْهُ مِنَ الكَلاَمِ فَأَشَارَ إِلَى القَعْرِ المَاكِثِ أَمَامَهُمْ بِسَبَّابَتِهِ عِنْدَهَا تَكَلَّمَ جَاك :

- لَقَدْ وَقَعَ صَدِيقُنَا جُونْ فِي القَاعِ . يَا لَلْمُصِيبَةِ . قُلْ لَنَا يَا عَمَّاهُ مَاذَا عَسَانَا نَفْعَلُ . إِنَّهُ يَنْزِفُ فِي الأَسْفَلِ .

لَمْ يَجِدْ أَمَادُو مَا يَقُولُهُ فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الوَادِي أَعْسَرُ مِنْ أَنْ يَجْتَازَهُ بَشَرٌ . ظَلَّ وَ مَنْ مَعَهُ يُفَكِّرُونَ فِي طَرِيقَةٍ تُخَلِّصُ ذَلِكَ الجَسَدَ الصَّغِيرَ . نَظَرُوا إِلَى الهُوَّةِ فَتَرَاءَى لَهُمُ القَاعُ بَعِيدًا وَ قَدْ انْتَشَرَتْ صُخُورُهُ بِأَنْيَابِهَا فَغَطَّتِ التُّرَابَ .

ضَرَبَ الرِّجَالُ أَكُفَّهُمْ وَ قَدْ انْتَابَهُمْ إِحْسَاسٌ بِالهَزِيمَةِ. جَلَسَ أَمَادُو عَلَى جِذْعٍ قَرِيبٍ وَ ظَلَّ يُفَكِّرُ فِي سَبِيلٍ لِلْفِكَاكِ مِنْ هَذَا الإِحْسَاسِ القَاتِلِ وَ لَا حَلَّ يَلُوحُ فِي الأُفُقِ. فَجْأَةً تَذَكَّرَ قَوْلًا لِجَدِّهِ مَضَتْ عَلَيْهِ عَشَرَاتُ السِّنِينَ .

-" إِنْ أَنْتَ أَرَدْتَ أَنْ تَجْتَازَ الوَادِي يَا أَمَادُو أَوْ تَنْزِلَ إِلَى قَرَارِهِ فَتَذَكَّرْ أَنَّ الجَانِبَ الأَيْمَنَ مِنْهُ هُوَ أَأْمَنُ السُّبُلِ وَ أَيْسَرُهَا ."

عِنْدَهَا انْطَلَقَ نَحْوَ الرِّجَالِ وَ أَخْبَرَهُمْ بِمَا تَذَكَّرَهُ فَاسْتَأْنَفُوا النُّزُولَ . تَنَازَلَ الصَّخْرُ عَنْ بَعْضِ صَلَابَتِهِ و شِدَّتِهِ فِي هَذَا الجَانِبِ مِمَّا جَعَلَ المُهِمَّةَ يَسِيرَةً سِيَّما وَ أَنَّ الطَّحَالِبَ قَدْ انْعَدَمَتْ تَمَامًا عَلَى هَذِهِ الصُّخُورِ . وَ رَغْمَ صُورَةِ المَوْتِ التِي بَثَّتْهَا الهُوَّةُ السَّحِيقَةُ فِي نُفُوسِ الرِّجَالِ إِلَّا أَنَّ نِدَاءَ الرُّوحِ التِي كَانَتْ تَسْتَغِيثُ بِصَمْتِهَا فِي الأَسْفَلِ زَادَهُمْ إِقْدَامًا وَ إِقْبَالًا عَلَى المَجْهُولِ. أَمَّا الأَطْفَالُ فَقَدْ تَابَعُوا حَرَكَةَ الرِّجَالِ وَ هُمْ يَدُوسُونَ عَلَى الصَّخْرِ وَ يَصْنَعُونَ طَرِيقًا نَحْوَ الانْفِرَاجِ وَ يَمُدُّونَ أَيَادِيهِمْ إِلَى السَّمَاءِ مُتَوَسِّلِينَ اللهَ النَّجَاةَ للطفلِ. جَلَسُوا يَرْقُبُونَ جَسَدَ جُونْ بَيْنَ يَأْسٍ وَ أَمَلٍ .

مَضَى الوَقْتُ بَطِيئًا قَاتِلاً وَ كَأَنَّ الزَّمَنَ قَدْ تَمَدَّدَتْ رَدَهَاتُهُ . طَالَ الانْتِظَارُ وَ سَادَ الصَّمْتُ وَ امْتَلَأَتِ القُلُوبُ تَضَرُّعًا لِلسَّمَاءِ .

خَرَجَتْ مِنَ العُمْقِ أَصْوَاتٌ مُتَتَالِيَةٌ . نَظَرَ الأَطْفَالُ إِلَى القَعْرِ فَإِذَا الرِّجَالُ قَدْ بَلَغُوا المَكَانَ ثُمَّ انْحَنُوا لِرَفْعِ الجِسْمِ الغَضِّ الَّذِي تَمَثَّلَ مِنْ بَعِيدٍ جُثَّةً فَاقِدَةً لِلْحَيَاةِ وَ مَوْتًا مُعْلَنًا .

صَعَدَ الرِّجَالُ المُرْتَفَعَ بِكُلِّ حَذَرٍ خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ الطِّفْلُ مَرَّةً أُخْرَى . بَلَغُوا السَّهْلَ فَسَارُوا بِالصَّبِيِّ إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ حَيْثُ مَدَّدُوهُ . الْتَفَّ الأَطْفَالُ حَوْلَ صَدِيقِهِمْ وَ قَدْ غَسَلَ الدَّمْعُ وُجُوهَهُمْ . لَا حَرَكَةَ فِي هَذَا الجَسَدِ وَ لَا نَبْضَ . ذَهَبَ أَمَادُو حَيْثُ حِمَارُهُ وَ جَلَبَ قِنِّينَةً مَاءٍ. بَلَّلَ وَجْهَ الطِّفْلِ وَ جَسَّ نَبْضَهُ لَكِنَّهُ ظَلَّ عَلَى سُكُونِهِ عِنْدَهَا أَرْدَفَهُ عَلَى ظَهْرِ حِمَارِهِ وَ سَارَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِ أَبَوَيْهِ اللَّذَيْنِ تَزَلْزَلَتْ أَرْكَانُهُمَا لِمَشْهَدِ المَوْتِ وَ الدَّمِ الذِّي أَلَمَّ بِابْنِهِمَا .

سَارَعَا بِهِ عَلَى ظَهْرِ حِصَانٍ لَهُمَا إِلَى أَقْرَبِ مَدِينَةٍ. بَلَغُوا المُسْتَشْفَى وَ قَدْ تَضَاءَلَتْ آمَالُ النَّجَاةِ مَعَ كُلِّ قَطْرَةِ دَمٍ سَالَتْ مِنْ جَسَدِ جُونْ . وَقَفَ الأَبَوَانِ أَمَامَ إِدَارَةِ المُسْتَشْفَى وَ ظَلَّا لِسَاعَاتِ طِوَالٍ يَنْتَظِرَانِ مَا آلَ

إلَيْهِ مَصِيرُ اِبْنِهِمَا. وَ بَعْدَ طُولِ انْتِظَارِ لَمَحَا الطَّبِيبَ المُشْرِفَ عَلَى حَالَةِ الطِّفْلِ فَهَرَعَا إلَيْهِ يَسْأَلَانِهِ .

عَلَا نَحِيبُ الأُمِّ لَمَّـا عَلِمَتْ أنَّ وَلَدَهَا أَضْحَى سَجِينَ كُرْسِيّ مُتَحَرِّكٍ و رَاحَتْ تَتَسَاءَلُ كَيْفَ سَتَكُونُ أيَّامُهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ العَجْزُ .

لَمْ تَنْتَهِ حَيَاةُ جُونْ إثْرَ الحَادِثَةِ المَشْؤُومَةِ إنَّمَا أُقِيمَ العَزَاءُ عَلَى سَاقَيْهِ اللّتَيْنِ فَقَدَتَا الحَرَكَةَ إلَى الأَبَدِ .

ظَلَّ أَيَّامًا بِالمَشْفَى زَارَهُ خِلاَلَهَا أَصْدِقَاؤُهُ وَ بَكَوْا حَالَهُ وَ كَيْفَ تَحَوَّلَتْ تِلْكَ الهِمَّةُ العَالِيَةُ إلَى رَهِينَةِ فِي مُسْتَعْمَرَةِ الْعَجْزِ .

أَصْبَحَتْ الأَيَّامُ رَتِيبَةً مُمِلَّةً فَمَا عَادَتْ لَحَظَاتُ اللّقَاءِ تَحْلُو بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ الأصْدِقَاءُ جَمْعًا مَنْقُوصًا . وَ مَرَّتْ فَتْرَةٌ نَفَرَ فِيهَا الأَطْفَالُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُذَكِّرُهُمْ بِالوَادِي وَ قَعْرِهِ وَ صُخُورِهِ . أَحَسُّوا أَنَّ تَطَاوُلَهُمْ عَلَى جَبَرُوتِهِ أَحْدَثَ بُرْكَانًا أَذْهَبَ سَكِينَتَهُمْ وَ جَرَّدَ رَفِيقَهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ فَكَانُوا يُقَضّونَ أَغْلَبَ أَوْقَاتِهِمْ إلَى جَانِبِ جُونْ حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِالوِحْدَةِ وَ المَلَلِ .

طَالَمَا سَرَى الحُزْنُ إلَى رُوحِ جُونْ وَ فِكْرِهِ فَكَانَ كُلَّمَا خَلاَ إلَى نَفْسِهِ تَذَكَّرَ جِسْمَهُ العَلِيلَ فَتَعُودُ بِهِ الذّاكِرَةُ

إِلَى أَيَّامِ اللَّهْوِ مَعَ الخِلاَّنِ وَ تَتَبُّعِ الفَرَاشَاتِ وَ تَسَلُّقِ الأَشْجَارِ وَ كَيْفَ كَانَ سَبَّاقًا إِلَى المُهِمَّاتِ الصَعْبَةِ لَا يَخْشَاهَا وَ لاَ يَتَرَدَّدُ فِي إِنْجَازِهَا ثُمَّ يَضَعُ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ يَتَحَسَّسُ العَجْزَ وَ المَوْتَ الذّي أَحْدَقَ بِسَاقَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ فَيَبْكِي بُكَاءً حَارًّا مُوجِعًا ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ طَالِبًا مِنَ اللهِ أَنْ يَفُكَّ قَيْدَهُ . كَانَ جُونْ يُحَاوِلُ فِي أَوْقَاتَ عُزْلَتِهِ أَنْ يَتَحَدَّى الشَّلَلَ الذّي أَلَمَّ بِهِ فَيُمْسِكَ أَطْرَافَ الكُرْسِيّ مُحَاوِلًا الوُقُوفَ لَيَعْلَمَ فِيمَا بَعْدُ أَنَّ مَا فُقِدَ لَنْ يَعُودَ وَ أَنَّ الرِّضَى بِهَذَا الوَاقِعِ المُرّ بَاتَ أَمْرًا لَا بُدَّ مِنْهُ. هَكَذَا حَدَّثَ نَفْسَهُ طَوِيلًا وَ غَزَا اليَأْسُ خَاطِرَهُ فَأَرْدَى الأَمَلَ قَتِيلًا فِي دَوَاخِلِهِ . لَاحَظَ الأَصْدِقَاءُ أَنَّ الكَثِيرَ مِنْ رُوحِ جُونْ آلَ مُجَرَّدَ ذِكْرَى يَشْتَاقُونَهَا فَيَبْكُونَ لِغِيَابِهِ وَ يَسْأَلُونَ اللهَ مُعْجِزَةً تُعِيدُ مَا ضَاعَ .

كَانَ آدَامُ يُقَضّي الكَثِيرَ مِنْ يَوْمِهِ إِلَى جَانِبِ رَفِيقِهِ وَ يُحَاوِلُ أَنْ يَبُثَّ فِيه رُوحَ التفاؤل فَطَالَمَا قَالَ لَهُ:

- لَا تَدْرِي يَا جُونْ مَتَى تَحِلُّ المُعْجِزَةُ . قَدْ تُهْدِينَا الحَيَاةُ مَا نَتَمَنَّى فِي لَحْظَةِ دُعَاءٍ أَوْ سَاعَةِ صَفَاءٍ مَعَ العَالَمِ وَ إِنَّكَ لَأَنْقَى البَشَرِ .

كَانَ الطفل يُنْصِتُ لِآدَامَ فَيَغْزُو التنهد صَدْرَهُ و يَقُولُ:

- رُبَّمَا يَا أَخِي , لَكِنَّنِي أُحِسُّ أَنَّ مَوْتًا أَبَدِيًّا احْتَلَّ جُزْئِي السفلي وَ هَلْ سَبِقَ وَ عَادَتِ الحَيَاةُ لِمَيِّتٍ . الحَيَاةُ لَا تُوهَبُ مَرَّتَيْن .

كَانَ آدَامُ وَ هُوَ يُنْصِتُ إِلَى صَدِيقِهِ يَبْكِي فِي صَمْتٍ وَ يَتَذَكَّرُ الصراع بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الوَادِي وَ كَيْفَ وَهَنَ أَمَامَهُ وَ تَنَاسَى أَنْ يَقْتَصَّ مِنْهُ وَ هُوَ الذي سَرَقَ الحَيَاةَ مِنْ جِسْمِ أَعَزِّ خِلَّانِهِ .

****

جَلَسَ آدَاُم ذَاتَ صَبَاحٍ أَمَامَ المَنْزِلِ يُتَابِعُ كَعَادَتِهِ الإنسياب الجَمِيلَ لأَجْسَادِ الخُطَافِ اللَّامعةِ تَحْتَ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ وَهِيَ تُعَمِّرُ الفَضَاءَ الشَّفَّافَ وَ يَسْتَعْذِبُ زَقْزَقَةً كَانَتْ تَتَخَلَّلُ هُدُوءَ المَكَانِ فَتَمْلَأَ الكَوْنَ حُبُورًا وَ بَهْجَةً . تَذَكَّرَ وَ هُوَ فِي قِمَّةِ تَأَمُّلِهِ وَ انْتِشَائِهِ حِكَايَةَ صَدِيقِهِ مَعَ الوَادِي كَمَا تَذَكَّرَ أَنَّهُ مُنْذُ تِلْكَ الوَاقِعَةِ المُحْزِنَةِ لَمْ يَعُدْ إِلَى ذَلِكَ السَّهْلِ المُطِلِّ عَلَى جَوْفِ المَوْتِ . أَحَسَّ أَنَّ صَوْتًا مُنْبَعِثًا مِنْ دَاخِلِهِ يَحُثُّهُ عَلَى التَّوَجُّهِ إِلَى الوَادِي وَ العَوْدَةِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ عَزْمٍ وَ إِصْرَارٍ عَلَى تَحَدِّي قِوَى الشَّرِّ .

سَارَ مُتَبَاطِئًا فِي اتِّجَاهِ الوَادِي وَ صُورَةُ جُونْ أَسِيرًا لِكُرْسِيِّهِ لَا تُفَارِقُ خَيَالَهُ . أَحَسَّ أَنَّ الكَثِيرَ مِنْ رُوحِهِ الفَذَّةِ قَدْ مَاتَ لَحْظَةَ وُقُوعِ رَفِيقِهِ عَلَى الصَّخْرِ فَيَنْظُرُ إِلَى سَاعِدِهِ مُخَاطِبًا :

ـ أَيْنَ أَنْتِ ؟ مَاذَا دَهَاكِ ؟ هَلْ اسْتَسْلَمْتِ وَ سَلَّمْتِ حَقَّكَ فِي النِّزَاعِ هَدِيَّةً لِعَدُوِّكِ ؟

ثُمَّ مَضَى فِي طَرِيقِهِ مُخَاطِبًا حَالَهُ إِلَى أَنْ بَلَغَ المَكَانَ . أَطَلَّ عَلَى القَاعِ فَإِذَا الدَّمُ المُتَيَبِّسُ يُغَطِّي الصَّخْرَ المُسَنَّنَ وَ يُعِيدُ عَلَى ذَاكِرَتِهِ لَحْظَةَ السُّقُوطِ المُرَوِّعِ . أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ مُحَاوِلًا أَنْ يَنْسَى مَا حَدَثَ ثُمَّ رَكَنَ إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ اِمْتَدَّ عَلَى الأَدِيمِ . مَرَّرَ أَصَابِعَهُ بَيْنَ حَبَّاتِ التُّرَابِ يَتَحَسَّسُ قُوَّتَهُ . نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ وَ خَاطَبَهَا:

ـ لِنَتَّحِدَ أَنَا وَ أَنْتِ ضِدَّ الهُوَّةِ المُمِيتَةِ . إِنِّي أَرَاكِ قُوَّةً لَا تُقْهَرُ . أُرِيدُ أَنْ أُقْبُرَ القَعْرَ تَحْتَ أَدِيمَكِ وَ أَنْ يَسْتَوِيَ الوَادِي مَعَ السَّهْلِ فَيَضْحَى نَسْيًا مَنْسِيًّا . حُبَيْبَاتُكِ الرَّقِيقَةُ أَقْوَى أَلْفَ مَرَّةٍ مِنْ صُخُورِهِ وَ طَحَالِبِهِ اللَّعِينَةِ ، فَهَلُمَّ نُصْبِحْ كَيَانًا وَاحِدًا فَتُمْسِي القُوَّةُ أَضْعَافاً لَا تُنَازَعُ.

تَخَيَّلَ الأَرْضَ وَ هِيَ تُجِيبُهُ قَائِلَةً :

- الوَادِي هَاوِيَةٌ مُمِيتَةٌ وَ لَا أَظُنُّنَا نَهْزِمُهُ .

رَدَّ آدَامُ وَ قَدْ اِسْتَغْرَبَ قَوْلَهَا :

- الوَادِي مِنْكِ نَشَأَ وَ فِيكِ اِسْتَقَرَّ . أَنْتِ الأَصْلُ وَ هُوَ الفَرْعُ فَلَا غَلَبَةَ إِلَّا لَكِ وَ لَنَا نَحْنُ بَنِي الإِنْسَانِ .

وَ اسْتَمَرَّ يُحَادِثُ الأَرْضَ وَ يُجَادِلُهَا وَ يُعِيدُ رَسْمَ الحُلْمِ الذِّي غَابَ عَنْ خَاطِرِهِ مُدَّةً ثُمَّ اسْتَقَامَ وَ سَارَ نَحْوَ الوَادِي وَ أَلْقَى فِيهِ قَبْضَاتٍ مِنَ التُّرَابِ وَ دَوَّى صَوْتُهُ فِي الفَضَاءِ :

- إِنِّي لِنِزَاعِكَ لَعَائِدُ فَانْتَظِرْنِي .

ثُمَّ قَفَلَ رَاجِعًا إِلَى بَيْتِهِ .

قَضَى وَقْتَهُ بَيْنَ مَنْزِلِهِ وَ مَنْزِلِ جُونْ وَ تَحْتَ شَجَرَتِهِ يَقُصُّ عَلَيْهَا مَا كَانَ مِنْ يَوْمِهِ إِلَى أَنْ أَعْلَنَ اللَّيْلُ حُضُورَهُ . اِسْتَمَرَّ نَوْمُهُ هَادِئًا حَتَّى وَقَفَتِ الأَرْضُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَ قَالَتْ لَهُ :

- إِنِّي هُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ وَ رَهْنَ إِشَارَتِكَ . أَلَمْ تَطْلُبِ اتِّحَادًا بَيْنَنَا لَا يُكْسَرُ لِقَهْرِ الشَّرِّ وَ إِنِّي لَفَاعِلَةٌ مَا أُؤْمَرُ .

اِبْتَسَمَ آدَامُ فِي مَنَامِهِ وَ قَالَ :

- أُرِيدُ أَنْ تَغْمُرِي الوَادِي مِنْ ثَرَاكِ فَيَمْتَلِئُ جَوْفُهُ وَ نَنْطَلِقَ صَوْبَ الْعِلْمِ أَحْرَارًا بِلَا قُيُودٍ .

طَالَ الحُلْمُ الجَمِيلُ إِلَى أَنْ أَطَلَّ الصَّبَاحُ بِضَوْئِهِ المَحْبُوبِ يُقَبِّلُ جَبِينَ آدَام وَ يَحُثُّهُ عَلَى النُّهُوضِ وَ السَّيْرِ فِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ .

كَانَ عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ دَانِي وَ جَاكْ لِزِيَارَةِ جُونْ . الْتَقَوْا فِي مُنْتصَفِ الطَّرِيقِ ثُمَّ وَاصَلُوا السَّيْرَ حَتَّى بَلَغُوا بَيْتَ رَفِيقِهِمْ . كَانَ جُونْ يَنْتَظِرُ قُدُومَهُمْ كَانْتِظَارِ الأَرْضِ لِلسُّقْيَا فَيَسْتَمْتِعَ وَ يَنْسَى - وَ لَوْ لِبَعْضِ حِينٍ - عَذَابَهُ وَ أَلَمَهُ .

كَانَ حُلْمُ آدَام أَكْثَرَ مَا شَدَّ اهْتِمَامَهُمْ وَ أَسرَ فِكْرَهُمْ . عَجِبُوا لِلأَرْضِ تَنْطِقُ وَ تَسْأَلُ وَ ابْتَهَجُوا لِلنَّصْرِ يَلُوحُ لَهُمْ وَ لَوْ مِنْ بَعْضِ أَحْلاَمٍ . وَ دَونَ أَنْ يَعْلَمَ جُونْ، تَوَاعَدُوا عَلَى اللِّقَاءِ حَيْثُ الوَادِي صَبِيحَةَ الْيَوْمِ المُوَالِي.

اِلْتَقَى الأَصْحَابُ وَ قَدْ آسَفَهُمْ غِيَابُ خَلِيلِهِمْ . نَظَرُوا مَلِيًّا إِلَى بُقَعِ الدَّمِ وَ الهُوَّةِ الشَّاسِعَةِ وَ صُخُورِهَا ثُمَّ جَلَسُوا عِنْدَ ظِلِّ شَجَرَةٍ . وَ بِهُدُوءِ الحُكَمَاءِ قَالَ آدَامُ :

ـ مَاذا نَحْنُ فَاعِلُونَ فِي أَمْرِ هَذَا السحِيقِ المُمْتَدِّ أَمَامَنَا؟ رَدَّ دَانِي :

ـ إِنِّي أَخَافُ صِرَاعَهُ . أَ نَسِيتَ مَا جَنَيْنَا مِنْ تَحَدِّينَا لَهُ ؟ قَالَ آدَاُم :

ـ وَ لِأَنِّنِي لَمْ أَنْسَ ، قَرَّرْتُ أَنْ أَسْتَأْنِفَ المُوَاجَهَةَ . لَا بُدَّ أَنْ نَغْمُرَ قَرَارَهُ تُرَابًا .

قَالَ جَاكْ مُسْتَغْرِبًا :

ـ وَ كَمْ مِنَ التُّرَابِ سَنُلْقِي فِي هَذَا الجَوْفِ حَتَّى يَمْتَلِئَ ؟ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ مُحَالٌ يَا صَدِيقِي .

اِبْتَسَمَ آدَامُ وَقَالَ وَاثِقًا :

- إِنَّ الأَرْضَ إِلَى جَانِبِي كَمَا رَأَيْتُهَا فِي مَنَامِي وَ إِنِّي لَأَرَاكُمَا سَنَدًا لَا يَخِيبُ الظَّنُّ بِهِ أَبَدًا فَلَا تَسْتَسْلِمَا .

صَمَتُوا بُرْهَةً وَ هُمْ يُفَكِّرُونَ فِي مَا سَيَصْنَعُونَ وَ فِي سَبِيلٍ يَتَحَقَّقُ عَبْرَهَا النَّجَاحُ دُونَ أَنْ يَلْحَقَ الأَذَى أَيًّا مِنْهُمْ ثُمَّ خَطَا آدَامُ بِضْعَ خُطُوَاتٍ وَ هُوَ يَنْظُرُ إِلَى الوَادِي وَ قَالَ :

- سَنُلْقِي التُّرَابَ فِي القَاعِ . سَيَسْتَغْرِقُ وَقْتًا طَوِيلًا - لَا مَحَالَةَ - لَكِنَّهُ الحَلُّ الأَمْثَلُ .

رَدَّ جَاكْ وَ دَانِي :

- نَحْنُ مَعَكَ وَ لَنْ نَخْذُلَكَ وَ سَنَفْعَلُ مَا تُرِيدُ .

قَالَ آدَامُ :

- نَسْتَأْنِفُ رِحْلَةَ الصِّرَاعِ مِنْ صَبَاحِ الغَدِ. لِيَجْلِبَ كُلٌّ مِنَّا كِيسًا نَضَعُ فِيهِ مَا سَنُلْقِيهِ فِي الجَوْفِ مِنْ تُرَابٍ .

اِتَّفَقُوا ثُمَّ اِتَّجَهُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَ قَدْ شَحَذَ آدَامُ هِمَمَهُمْ و أَقْنَعَهُمْ بِجَدْوَى مَا هُمْ مَقْبِلُونَ عَلَيْهِ.

انْتظَرَ الأَطْفَالُ مَوْعِدَ بَدْءِ المُوَاجَهَةِ عَلَى أَحَرَّ مِنَ الجَمْرِ. كَانُوا فِي شَوْقٍ لِرُؤْيَةِ الوَادِي وَ هُوَ يَخْتَفِي .

طَالَتْ سَاعَاتُ النَّهَارِ وَ مَضَى اللَيْلُ بَطِيئًا إِلَى أَنْ أَطَلَّ الصُّبْحُ فَانْطَلَقَ الأَصْدِقَاءُ نَحْوَ مَكَانِ الصِّرَاعِ وَ كُلُّهُمْ عَزْمٌ وَ ثِقَةٌ لَا تَنْحَنِي . كَانُوا كُلَّمَا تَذَكَّرُوا جُونْ وَ هُوَ مَحْصُورٌ فِي كُرْسِيِّهِ إِلَّا وَ تَضَاعَفَ إِقْدَامُهُمْ . ظَلُّوا يَمْلَؤُونَ أَكْيَاسَ التُّرَابِ تِبَاعًا وَ يُفْرِغُونَهَا فِي القَاعِ دُونَ كَلَلٍ . اسْتَمَرَّ العَمَلُ أَيَّامًا وَ ظَلَّتْ الإِرَادَةُ مُتَّقِدَةً رَغْمَ أَنَّ الوَادِي حَافَظَ عَلَى عُمْقِهِ كَأَنْ لاَ شَيْءَ أُلْقِيَ فِي جَوْفِهِ . كَانَ آدَامُ يَرَاقِبُ حَجْمَ القَعْرِ وَ يَتَوَعَّدُهُ بِالقَبْرِ وَ قَدْ اسْتَقَرَّ العَزْمُ فِي نَفْسِهِ ثَابِتًا ثُبُوتَ الجَبَلِ . أَمَّا دَانِي وَ جَاكْ فَقَدْ أَحَسَّا أَنَّ الجُهْدَ بَاتَ مُجَرَّدَ عَبَثٍ وَأَنْ لَا مَفَرَّ مِنَ الاسْتِسْلَامِ إِذَا مَا أَثْبَتَ الخَصْمُ تَفَوُّقَهُ . صَارَ التِزَامَهُمْ بِمَوْعِدِ العَمَلِ مُجَرَّدَ إِرْضَاءٍ لِآدَامَ . بَدَأَتْ جُهُودُهُمْ تَفْتُرُ. ذَهَبَ النَّشَاطُ وَ حَلَّ مَحَلَّهُ تَبَاطُؤٌ لَاحَظَهُ آدَامُ وَ كَرِهَهُ . عَرِفَ أَنَّ إِرَادَتَهُمْ بَدَأَتْ تَنْهَزِمُ أَمَامَ الغَوْرِ الذِّي ابْتَلَعَ الآلَافَ مِنْ أَكْيَاسِ التُّرَابِ وَ العُمْقُ عَلَى حَالِهِ لاَ يَزَالُ سَحِيقًا مُخِيفًا لَا يَتَغَيَّرُ . عِنْدَهَا خَاطَبَهُمَا آدَامُ:

ـ أَعْلَمُ مَا حَلَّ بِكُمَا مِنْ يَأْسٍ وَ قَدْ بَذَلْتُمَا قُصَارَى جُهْدَيْكُمَا وَ الوَادِي كَمَا هُوَ. لَكِنْ اعْلَمَا أَنَّ المَطَامِحَ لَا تُبْلَغُ بِالتَّمَنِّي بَلْ بِالفِعْلِ وَ العَمَلِ الدَّؤُوبِ . إِنِّي لَأَرَى فِي وَجوهِكِما رَغْبَةً فِي مُغَادَرَةِ هَذَا المَيْدَانِ وَ إِنْ كَانَ ذَلِكَ

مَا تُرِيدَانِهِ فَإِنّي لَا أَعْتَرِضُ . لَكُمَا حُرّيَةُ الاخْتِيَارِ . طَأْطَأَ الطِّفْلاَنِ رَأْسَيْهِمَا وَ أَجَابَا بِنَبْرَةٍ انْهِزَامِيَّة:

ـ لَمْ نُرِدْ أَنْ نَتْرُكَكَ هُنَا وَحْدَكَ لَكِنْ أُنْظُرِ الوَادِي لَا يَتَزَحْزَحُ وَ لَا يَنْقُصُ وَ قَدْ خَارَتْ قُوَانَا . إِنَّ الاسْتِسْلاَمَ نَتِيجَةٌ حَتْمِيَّةٌ لِمَا آلَ إِلَيْهِ الصّرَاعُ ، وَ أَنْتَ أَيْضًا يَا أَخَانَا حَرِيٌّ بِكَ أَنْ تَسْتَسْلِمَ . الوَادِي لَا يُهْزَمُ وَ لِتَبْقَ المَدْرَسَةُ حُلْمًا نَرَاهُ فِي مَنَامِنَا لَا أَكْثَرَ .

رَدَّ آدَامُ غَاضِبًا :

ـ أَنْ أَسْتَسْلِمَ فَهَذَا المُسْتَحِيلُ بِعَيْنِهِ . أَنَا خُلِقْتُ لِأُجَابِهَ الوَادِي وَ لَنْ تَخْذُلَنِي إِرَادَتِي وَ لَنْ أَخْذُلَ أَحْلاَمِي . سَأَسِيرُ فِي طَرِيقِ التَّحَدّي حَتَّى أَبْلُغَ مَسْعَايَ .

طَالَ الجِدَالُ وَ ثَبَتَ آدَامُ عَلَى عَزْمِهِ فِي حِينَ غَادَرَ الصَّدِيقَانِ حَلَبَةَ الصّرَاعِ تَارِكَيْنِ لَهُ المِشْعَلَ .

اسْتَمَرَّ آدَامُ يُلْقِي أَكْيَاسَ التُرَابِ وَ الوَادِي عَلَى حَالِهِ . وَكَمْ مَرَّةً خَاطَبَهُ قَائِلًا :

ـ أَنَا شُحْنَةُ أَمَلٍ لَا تَفْنَى فَلَا تَتَخَيَّلْ أَنْ أَسْتَسْلِمَ حَتَّى وَ إِنْ خَذَلَنِي أَصْدِقَائِي .

مَرَّتِ الأَيَّامُ و حَلَّ الصَّيْفُ بِشَمْسِهِ الحَارِقَةِ فَصَارَ النِّزَاعُ شَاقًّا قَاتِلاً . كَانَ ادَامُ يَنْهَضُ مَعَ الفَجْرِ لِيَسْتَغِلَّ السَّاعَاتِ الأُولَى مِنَ النَّهَارِ حَتَّى لَا تُرْهِقَهُ حَرَارَةُ الطَّقْسِ . يَشْتَدُّ الهَجِيرُ مَعَ البُرُوزِ الأَوَّلِ لِلشَّمْسِ وَ رَغْمَ ذَلِكَ يَسْتَمِرُّ آدَامُ فِي رَدْمِ الوَادِي وَ لَا يَعُودُ إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا عِنْدَ الظُّهْرِ وَ قَدْ اسْتَحَالَ جَسَدَهُ جَفَافًا وَ وَهَنًا.

طَالَمَا حَدَّثَهُ وَالِدُهُ أَنَّ الاسْتِسْلاَمَ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ حِكْمَةٌ وَ أَنَّ السَّيْرَ فِي الدُّرُوبِ المُغْلَقَةِ أَشْبَهَ بِسَكْبِ المَاءِ فِي الرَّمْلِ إِذْ لَا جَدْوَى وَ لَا مَنْفَعَةَ . وَ رَغْمَ كُلِّ الكَلاَمِ المُثَبِّطِ لِلْعَزَائِمِ لَمْ يَتَأَثَّرْ وَ لَمْ تَنْطَفِئْ جَذْوَةُ حَمَاسِهِ، و فِي إِحْدَى زِيَارَاتِهِ لِجُونْ قَالَ:

- قَرَّرْتُ أَنْ أَثْأَرَ لَكَ مِمَّنْ جَعَلَكَ حَبِيسَ مَقْعَدِكَ .

رَدَّ جُونْ :

- هَذَا قَدَرِي يَا صَدِيقِي . لَا تُحَمِّلْ نَفْسَكَ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ. خَلَقَ اللهُ المَوْجُودَاتِ بِطَاقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَإِنْ نَحْنُ أَدْرَكْنَا الْبَوْنَ الشَّاسِعَ بَيْنَ مَا بَثَّ اللهُ فِينَا مِنْ قُدْرَةٍ وَ مَا أَعْطَاهُ لِغَيْرِنَا فَمِنَ الحِكْمَةِ أَنْ نَتَرَاجَعَ عَنِ المُوَاجَهَةِ .

رَدَّ آدَامُ :

- البَوْنُ بَيْنِي وَ بَيْنَ الوَادِي مَعْلُومٌ لَكِنّي أُوْمِنُ بِإِرَادَتِي وَ إِنّي بِهَا أَقْوَى وَ أَعْتَى . سَأُحَقِّقُ النَّصْرَ بِإِذْنِ اللهِ.

قَالَ جُونْ :

- إِنّي أُكْبِرُ فِيكَ عَزْمَكَ وَ هِمَّتَكَ . عَظِيمَةٌ هِيَ السَّوَاعِدُ التّي لَا تَعْرِفُ لِلْيَأْسِ بَابًا . مَا أَرْوَعَ مَا تَحْمِلُ مِنْ حَمَاسٍ ! لَيْتَنِي مَعَكَ ، كنُاَّ نَجْعَلُ مِنَ الحَلَبَةِ نَارًا تَتّقِدُ فَنَحْرِقُ غُرُورَ الوَادِي وَ لُؤْمَهُ .

رَدَّ آدَامُ :

- أَنَا مَشْحُونٌ بِرَغْبَتِي الجَامِحَةِ فِي الثَّأْرِ لَكَ فَأَنْتَ دَائِمُ الحُضُورِ رَغْمَ الغِيَابِ . إِنَّكَ نَبْعُ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ حَمَاسٍ فَلَا تَشْغَلْ بَالَكَ وَ لَا تَحْزَنْ إِنْ أَنْتَ غِبْتَ عَنْ مَيْدَانِي وَ اعْلَمْ جَيِّدًا أَنِّي قَرَّرْتُ أَنْ أُهْدِيَكَ انْتِصَارِي إِنْ أَنَا حَقَّقْتُهُ .

ابْتَسمَ جُونْ وَ قَالَ :

- شُكْرًا يَا رَفِيقِي . شَهَامَتُكَ لاَ تَنْضُبُ فَلْيَكُنِ النَّصْرُ حَلِيفَكَ . لَكِنَّنِي فِي كُلّ الأَحْوَالِ سَأَظَلُّ بَعِيدًا عَنِ المَدْرَسَةِ مَهْمَا تَيَسَّرَتِ السُّبُلُ . لَا سِيقَانَ تُمَكِّنُنِي مِنْ شَقّ الطَّرِيقِ إِلَيْهَا . أَصْبَحَ كُلُّ مَا فِي الكَوْنِ بَعِيدًا عَنِّي

حَتَّى لَوْ فَصَلَتْ بَيْنَنَا خُطُوَاتٌ . أَنَا بِاخْتِصَارٍ جِسْمٌ سُلِّمَ نِصْفُهُ لِلْمَوْتِ .

لَمْ يَتَمَالَكْ آدَامُ نَفْسَهُ وَ أَجْهَشَ بِالبُكَاءِ . أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لَكِنَّ الكَلِمَاتِ احْتَبَسَتْ فِي حُنْجُرَتِهِ . سَادَ صَمْتٌ رَهِيبٌ وَدَّعَ بَعْدَهُ الفَتَى صَدِيقَهُ الحَمِيمَ ثُمَّ أَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى المَنْزِلِ .

تَمُرَّ الأيَّامُ وَ القَبْضَةُ الصَّغِيرَةُ تَصُبّ التُّرَابَ فِي الوَادِي وَ تَنْتَظِرُ لَحْظَةَ النَّصْرِ المُبِينِ .

****

ذَاتَ يَوْمٍ قَضَى آدَامُ سَاعَاتٍ طِوالاً يَمْلَأُ الأكْيَاسَ بالرَّمْلِ وَ يُفْرِغُهَا فِي الوَادِي ثُمَّ تَقَدَّمَ وَ نَظَرَ فِي الأسْفَلِ لَكِنَّهُ وَجَدَ الغَوْرَ كَمَا عَهِدَهُ ضَارِبًا فِي العُمْقِ فَاسْتَبَدَّ بِهِ الشَّجَنُ . نَفَضَ كَفَّيْهِ وَ جَلَسَ عَلَى بَقَايَا جِذْعٍ . نَظَرَ إِلَى الأَعْلَى وَ رَفَعَ يَدَيْهِ وَ قَالَ :

- أَيَّتُهَا السَّمَاءُ ، أَيَّتُهَا الأَرْضُ، إِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أُهْزَمَ فَيَزِيدُ طُغْيَانُ هَذَا المُسْتَقِرُّ أَمَامِي مُنْذُ وُلِدْتُ . هَلْ مِنْ مُعْجِزَةٍ تَشُدُّ عَلَى سَاعِدِي فَتَصْنَعَ مِنْ حُلْمِي وَاقِعًا ؟

حَدَّثَ الكَوْنَ وَ تَضَرَّعَ للهَ ثُمَّ وَدَّعَ المَكَانَ وَ قَفَلَ رَاجِعًا إِلَى بَيْتِهِ فَجْأَةً سَمِعَ هَدِيلاً مُتَقَطِّعًا مُنْبَعِثًا مِنْ مَكَانٍ لَيْسَ بِالبَعِيدِ . أَحَسَّ أَنَّ الصَّوْتَ يَحْمِلُ الكَثِيرَ مِنَ الشَّكْوَى وَ الدُعَاءِ فَرَاحَ يَبْحَث عَنْ مَصْدَرِهِ بَيْنَ الأَشْجَارِ وَ وَرَاءَ الجُذُوعِ المُنْتَشِرَةِ عَلَى المُنْبَسَطِ فَجْأَةً رَأَى طَائِرًا صَغِيرًا أَبْيَضَ أَسْفَلَ شَجَرَةٍ قَدْ شُدَّ وِثَاقُهُ بِخَيْطٍ رَفِيعٍ . نَظَرَ إِلَيْهِ آدَامُ وَ قَدْ تَعَجَّبَ لِجَمَالِ المَخْلُوقِ وَ صِغَرِ حَجْمِهِ وَ بَيَاضِهِ النَّاصِعِ فَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ . أَرَادَ أَنْ يَفُكَّ القَيْدَ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ آدَاةً تُمَكِّنُهُ مِنْ ذَلِكَ . قَرَّبَ الخَيْطَ مِنْ فَمِهِ وَ هُوَ يُحَاذِرُ أَنْ لَا يُؤْذِيَ العُصْفُورَ ثُمَّ وَضَعَهُ بَيْنَ أَسْنَانِهِ وَ شَيْئًا فَشَيْئًا فَكَّ الرِّباطَ . وَضَعَ الطَّائِرَ عَلَى الأَرْضِ كَيْ يُحَلِّقَ. غَيْرَ أَنَّ حَرَكَةً غَرِيبَةً حَلَّتْ بِالمَكَانِ فَاهْتَزَّتِ الجُذُوعُ وَ تَمَايَلَتِ الأَشْجَارُ وَ ارْتَفَعَ الغُبَارُ . جَزَعَ آدَامُ لِمَا حَدَثَ وَ هُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَبَيَّنَ مَكَانَ الطَّائِرِ وَسَطَ الضَّبَابِ الذّي عَمَّ المَكَانَ حَتَّى يَحْمِيَهُ . فَرَكَ عَيْنَيْهِ لِيُذْهِبَ عَنْهُمَا الغُبَارَ العَالِقَ بِهِمَا . فَتَحَهُمَا فَإِذَا طَائِرٌ عِمْلَاقٌ يَمُدُّ جَنَاحَيْهِ فِي المَكَانِ قَدْ وَقَفَ أَمَامَهُ .

حَرَّكَ الطَّائِرُ جَنَاحَهُ الأَيْمَنَ فَذَهَبَ الضَّبَابُ وَ صَارَ الفَضَاءُ صَافِيًا شَفَّافًا. وَقَفَ آدَامُ مَشْدُوهًا أَمَامَ المَخْلُوقِ العِمْلَاقِ وَ قُدْرَتِهِ الخَارِقَةِ التِّي أَعَادَ بِهَا صَفَاءَ الكَوْنِ

فِي لَحْظَةٍ وَ قَدْ سَكَنَهُ السُّؤَالُ وَ اسْتَبَدَّتْ بِهِ الحَيْرَة .رَدَّدَ فِي صَمْتٍ :

ـ أَيْنَ الطَّائِرُ الصَّغِيرُ الذّي أَنْقَذْتُهُ قَبْلَ قَلِيلِ ؟ وَ كَيْفَ ظَهَرَ هَذَا الجِسْمُ الهَائِلُ أَمَامِي وَ مِنْ أَيْنَ أَتَى ؟ إِنّي لَفِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِي .

وَ بَيْنَمَا هُوَ يُحَاوِرُ نَفْسَهُ إِذْ بِالطَّائِرِ يُخَاطِبُهُ :

ـ لِتَعْلَمْ أَيُّهَا الْفَذُّ إِنّي أَنَا ذَلِكَ الفَرْخُ الصَّغِيرُ الذّي فَكَكْتَ قَيْدَهُ . لَقَدْ اخْتَبَرْتُ فِيكَ رُوحَ الإِنْسَانِ العَطُوفِ الرَّؤُومِ وَ قَدْ اجْتَزْتَ الإِخْتِبَارَ بِنَجَاحٍ . طَالَمَا رَاقَبْتُكَ مِنْ بُرْجِي المُتَأَرْجِحِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الارْضِ وَ أَنْتَ تَتَّقِدُ عَزْمًا مُحَاوِلًا رَبْطَ السَّهْلِ بِالسَّهْلِ . حُبُّكَ لِلْعِلْمِ وَ مُوَاجَهَتُكَ لِلصِّعَابِ دُونَ أَنْ تَفْقِدَ رُوحَ الأَمَلِ جَعَلَانِي أَنْتَصِبُ أَمَامَكَ الآنَ . أَنْتَ يَا فَتَى الإِرَادَةِ ، لَمْ تَتَخَلَّ يَوْمًا عَنْ مَطْمَحِكَ حَتَّى عِنْدَمَا انْفَضَّ صَدِيقَاكَ مِنْ حَوْلِكَ وَ تَرَكَاكَ فَرْدًا تُجَابِهُ عِمْلَاقًا . هَذَا مَا جَعَلَكَ كَبِيرًا فِي عَيْنِي .

اِسْتَرْجَعَ آدَامُ وَعْيَهُ المَسْلُوبَ مِنْ هَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ وَ قَالَ :

ـ مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا االكَبِيرُ؟ وَ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتَ ؟

رَدَّ الطَّائِرُ :

- أَنَا القُوَّةُ تَشَكَّلَتْ فِي هَذَا الجِسْمِ وَ هَذَيْنِ الجَنَاحَيْنِ . جِئْتُ أُحَقِّقُ مَعَكَ المُعْجِزَةَ التّي حَلُمْتَ بِهَا طَوِيلًا . لَكِنْ

يَا آدَامُ عَلَيْكَ أَنْ تُنَفِّذَ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ وَ إِنْ أَنْتَ تَمَكَّنْتَ مِنْ ذَلِكَ فَلَكَ الوَادِي يَسْتَوِي مَعَ السَّهْلِ .

عَلَتْ مُحَيَّا الطِّفْلِ ابْتِسَامَةٌ غَيَّرَتْ مَلَامِحَهُ ثُمَّ جَلَسَ يَتَحَسَّسُ التُّرَابَ حَتَّى يَتَأَكَّدَ أَنَّهُ مَازَالَ فِي عَالَمِهِ وَ أَنَّ مَا هُوَ فِيهِ وَاقِعٌ حَيٌّ . رَفَعَ رَأْسَهُ وَ قَالَ :

- وَ إِنِّي لَأَرَى فِي هَذِهِ العَظَمَةِ التّي أَنْتَ فِيهَا حُلْمٌ يَتحَقَّقُ وَ أُمْنِيَةٌ تَقْتَرِبُ . أَمَّا عَنْ مَطْلَبِكَ فَإِنِّي مُصْغٍ إِلَيْكَ وَ تَحْتَ أَمْرِكَ فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ .

حَرَّكَ الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ حَرَكَةً خَفِيفَةً فَاسْتَوَى عَلَى قِمَّةِ أَعْتَى شَجَرَةٍ بِالمَكَانِ ثُمَّ أَشَارَ بَجَنَاحِهِ الأَيْمَنِ وَ قَالَ:

- هَلْ رَأَيْتَ ذَلِكَ الشَّاهِقَ المُمْتَدَّ نَحْوَ االسَّمَاءِ ؟

أَجَابَهُ آدَامُ :

- وَ مَاذَا أَرَى ؟إِنَّ حَجْمِيَ الصَّغِيرَ يَحُولُ دُونَ رُؤْيَةِ مَا تَرَى .

حَطَّ الطَّائِرُ عَلَى يَمِينِ الطِّفْلِ وَ مَدَّ جَنَاحَهُ وَ طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَعْتَلِيَهُ وَ يُثَبِّتَ جَسَدَهُ جَيِّدًا عَلَى عُنُقِهِ ثُمَّ قَالَ :

- سَأُحَلِّقُ بِكَ فِي هَذَا الفَضَاءِ الرَّحْبِ وَ سَتَرَى مَا رَأَيْتُ.

تَسَلَّقَ آدَامُ الجَنَاحَ وَ اتَّخَذَ مَكَانًا آمِنًا عَلَى العُنُقِ وَسَطَ الرِّيشِ الأَبْيَضِ النَّاعِمِ . مَدَّ الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ ثُمَّ رَفْرَفَ بِقُوَّةٍ وَ انْبَسَطَ مُحَلِّقًا فِي الفَضَاءِ .

رَأَى آدَامُ الكَوْنَ تَحْتَ نَاظِرَيْهِ وَ كَيْفَ انْبَطَحَ الوَادِي هُوَّةً عَمِيقَةً قَسَمَتِ المَكَانَ شَطْرَيْنِ وَ بَاعَدَتْ بَيْنَ السَّهْلَيْنِ رَغْمَ اشْتِرَاكِهِمَا فِي السَّمَاءِ وَ الهَوَاءِ . قَالَ الطَّائِرُ وَ هُوَ يَرْتَفِعُ عَالِيًا :

- وَ المَدْرَسَةُ ؟ مَاذَا لَوْ وَضَعْتُكَ عَلَى سَقْفِهَا ؟

اِبْتَهَجَ آدَامُ لِلْخَبَرِ وَ قَالَ:

- أُمْنِيَةٌ طَالَمَا رَاوَدَتْ خَيَالِي . سَأَكُونُ مُمْتَنًّا.

رَدَّ الطَّائِرُ :

- هَلُمَّ بِنَا نَعْتَلِ السَّقْفَ وَ نَكْتَشِفْ عَالَمَكَ المَحْبُوبِ.

وَ فِي حَرَكَةٍ أَنِيقَةٍ انْسابَ الطَّائِرُ فِي الفَضَاءِ انْسِيَابًا خَفِيفًا وَ اتَّجَهَ نَحْوَ الجَبَلِ الكَبِيرِ و فِي سُرْعَةِ البَرْقِ كَانَا عَلَى السَّقْفِ . طَلَبَ مِنْ آدَامَ - الذّي ظَلَّ يَتَمَعَّنُ جَمَالَ المَكَانِ - أَنْ يَنْزِلَ مِنْ عَلَى عُنُقِهِ وَ يُشْبِعَ نَظَرَهُ مِنَ الفَضَاءِ الذّي اِسْتَوْلَى عَلَى خَيَالِهِ وَ صَارَ هدَفَاً يُصَارِعُ مِنْ أَجْلِهِ هُوَّةً سَحِيقَةً . نَزلَ الصَّبِيُّ وَ ظَلَّ يَجُوبُ السَّقْفَ وَ يُحَاوِلُ أَنْ يَرَى مَا يَحْوِيهِ المَكَانُ . نَظَرَ إِلَيْهِ الطَّائِرُ وَ قالَ :

- هَلْ أَعْجَبَتْكَ المَدْرَسَةُ ؟

رَدَّ آدَامُ :

- إِنَّهُ مَكَانٌ سَاحِرٌ . حُلْمٌ سَكَنَ خَاطِرِي وَ اسْتَقَرَّ فِي خَيَالِي . لَكَ جَزِيلُ شُكْرِي وَ امْتِنَانِي . هَذَا فَضْلٌ لَنْ أَنْسَاهُ .

قَالَ الطَّائِرُ :

- عَفْوًا . إِنّي أُكَافِئُ فِيكَ الرُّوحَ المُتَّقِدَةَ حُبًّا لِلْمَعْرِفَةِ وَ العِلْمِ . أَمَّا الآنَ فَهَيَّا بِنَا أُرِكَ مَا أَرَدْتُكَ أَنْ تَرَاهُ أَوَّلًا.

تَمَسَّكَ آدَامُ بِالعُنُقِ جَيِّدًا فَحلَّقَ الطَّائِرُ عَالِيًا فِي الفَضَاءِ إِلَى أَنْ بَلَغَ سَفْحَ جَبَلِ شَاهِقٍ ثُمَّ تَوَقَّفَ وَ أَشَارَ بِجَنَاحِهِ إِلَى القِمَّةِ وَ قَالَ :

- هُنَاكَ سَتَخُوضُ صِرَاعًا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الهَزِيمَةِ وَ إِنْ أَثْبَتَّ صَبْرَكَ وَ إِرَادَتِكَ فَلَكَ مَا أَرَدْتَ .

قَالَ الطِّفْلُ :

- وَ مَا يُوجَدُ عَلَى القِمَّةِ ؟

قَالَ الطَّائِرُ :

- اِعْتَلِ عُنُقِي ثَانِيَةً وَ سَتَرَى بِعَيْنَيْكَ مَا احْتَوَتْهُ ذُرْوَةُ الجَبَلِ .

اسْتَقَرَّ آدَامُ عَلَى جِسْمِ الطَّائِرِ مَرَّةً أُخْرَى فَطَارَ بِهِ إِلَى أَنْ طَافَ أَعْلَى الجَبَلِ . طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُسَلِّطَ نَظَرَهُ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَوَتْ وَسَطَ المَكَانِ . حَدَّقَ آدَامُ فَإِذَا شُعَاعٌ بِلَوْنِ المَاسِ يَأْسِرُ نَظَرَهُ .

سَأَلَ الطَّائِرُ الصَّبِيَ :

- مَاذَا رَأَيْتَ ؟

أَجَابَ الصَّبِيُّ :

- رَأَيْتُ شَعَاعًا . نَعَمْ شُعَاعًا وَ لَيْسَ شَيْئًا آخَرَ .

قَالَ الطَّائِرُ :

- الشُّعَاعُ مُنْبَعِثٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ . وَ أَنْتَ سَتَكُونُ هُنَا لِتَحْمِلَ اللُّؤْلُؤَةَ مَعَكَ إِلَى الأَرْضِ . فَمَاذَا تَرَى ؟

نَظَرَ الطِّفْلُ إِلَى المَكَانِ وَ العُلُوِّ الْذِّي اتَّحَدَ مَعَ الأُفُقِ و قالَ:

- إِنَّ عَظَمَةَ المَسْعَى تَهُوِّنُ المَصَاعِبَ . سَأُحَاوِلُ و سَأَبْذُلُ جُهْدًا لاَ يَلِينُ

قَالَ الطَّائِرُ :

- اِبْتَعِدْ الآنَ عَنِ الوَادِي وَ حَوِّلْ جُهُودَكَ إِلَى هَذَا الجَبَلِ وَ إِنِّي أَرْقُبُكَ مِنْ بَعِيدٍ .

عَادَ الطَّائِرُ بِآدَام إِلَى السَّهْلِ المُطِلِّ عَلَى الوَادِي ثُمَّ اسْتَوَى فِي الفَضَاءِ وَ اخْتَفَى فِي الأُفُقِ الرَّحْبِ . نَظَرَ الوَلَدُ إلى القَرارِ العمِيقِ وَ خَاطَبَهُ قَائِلًا :

- إِنَّ مِئْذَنَةَ النَّصْرِ سَيُدَوِّي صَوْتُهَا عَلَى بَقَايَاكَ أَيُّهَا السَّحِيقُ . سَيَحِلُّ بِكَ الدَّمَارُ فَتَهَيَّأْ لِلنِّزَالِ .

سَارَ نَحْوَ مَنْزِلِهِ وَ الأَمَلُ يَحْدُوهُ وَ قَدْ بَدَأَتِ الأَمَانِي تَخُطُّ كَيَانَهَا عَلَى أَرْضِ الوَاقِعِ . أَلْفَى وَالِدَيْهِ عِنْدَ شَجَرَةِ التُّوتِ الكَبِيرَةِ فَاتَّجَهَ نَحْوَهُمَا . قَبَّلَهُمَا ثُمَّ دَخَلَ المَنْزِلَ وَ اسْتَلْقَى وَحِيدًا فِي غُرْفَتِهِ . أَحَسَّتْ أُمُّهُ أَنَّهُ يَحْمِلُ سِرًّا فَسَارَعَتْ إِلَيْهِ تَسْأَلُهُ :

ـ أَ حَدَثَ أَمْرٌ جَدِيدٌ ؟ إِنِّي أَرَى سِرًّا بَيْنَ عَيْنَيْكَ وَ إِنِّي مُصْغِيَةٌ إِلَيْكَ فَهَاتِ مَا عِنْدَكَ.

لَمْ يَتَعَوَّدْ آدَامُ أَنْ يُخْفِيَ أَمْرًا عَنْ أُمِّهِ فَطَلَبَ مِنْهَا الإِنْتِظَارَ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِمَا وَالِدُهُ . حَضَرَ الأبُ فَرَوَى آدَامُ مَا كَانَ مِنْ يَوْمِهِ . أَصْغَى الأَبَوَانِ لِإِبْنِهِمَا وَ قَدْ أَخَذَتْهُمَا الدَّهْشَةُ وَ سَكَنَهُمَا الخَوْفُ عَلَى مَصِيرِ الطِّفْلِ . أَحَسَّتْ تَانْيَاَ أَنَّ خَطَرًا يَتَرَصَّدُه فَقَالَتْ :

ـ أَنْتَ جَرِيءٌ وَ صَاحِبُ عَزْمٍ وَ إِرَادَةٍ لَكِنْ اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ التَّضْحِيَةَ لَا بُدَّ أَنْ يَصْحَبَهَا تَعَقُّلٌ . أَنْ تَتَسَلَّقَ جَبَلًا كَالذِّي وَصَفْتَ فَذَاكَ ضَرْبٌ مِنَ المُخَاطَرَةِ . لَا تُؤْذِ نَفْسَكَ فَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ سِوَاكَ .

اِقْتَرَبَ آدَامُ مِنْ أُمِّهِ وَ أَمْسَكَ يَمِينَهَا وَ قَبَّلَهَا ثُمَّ قَالَ:

- مَا سَأَفْعَلُهُ يَا حَبِيبَتِي هُوَ جُهْدٌ سَأَبْذُلُهُ فِي سَبِيلِ أَنْ يُنِيرَ العِلْمُ دُرُوبَنَا فَتَتَيَقَّظُ العُقُولُ . وَ لِتَعْلَمِي أَنَّ طَرِيقِي آمِنَةٌ بِإِذْنِ اللهِ . إِنِّي مَرْفُوقٌ بِرِضَاكِ فَلَا تَخْشَيْ شَيْئًا .

أَنْصَتَ الأَبُ إِلَى كَلَامِ اِبْنِهِ وَ قَالَ :

- اِبْنُنَا يَا تَانْيَا طِفْلٌ عَلَى هَيْأَةِ رَجُلٍ . إِنِّي أُكْبِرُ فِيهِ شَجَاعَتَهُ . دَعِيهِ يَحْمِلُ مِشْعَلَ النَّصْرِ وَ لِيَنْهَلْ مِنْ نُورِ الفِكْرِ مَا شَاءَ . أَمَّا أَنْتَ يَا صَغِيرِي فتَسَلَّحْ بِالْعَزْمِ وَ لاَ تَتَوَانَ . نَحْنُ بِانْتِظَارِ لَحْظَةِ الإِنْتِصَارِ المُبِينِ .

ابْتَسَمَ آدَامُ لِكَلاَمِ وَالِدِهِ ثُمَّ احْتَضَنَ وَالِدَتَهُ وَ قَبَّلَ جَبِينَهَا وَ قَالَ :

- سَأَعُودُ مِنْ ذَلِكَ الجَبَلِ الشَّاهِقِ سَالِمًا مُعافَى فَاطْمَئِنِّي وَ لاَ تَجْزَعِي .

اِمْتَلأَتْ عَيْنَا الأُمِّ دَمْعًا ثُمَّ غَادَرَتْ وَ أَمَادُو غُرْفَةَ الطِّفْلِ وَ تَرَكَاهُ لِيَسْتَرِيحَ .

أَمْضَى الفتى مَا تَبَقَّى مِنْ يَوْمِهِ فِي غُرْفَتِهِ وَ لَا شَيْءَ يَعْمُرُ خَيَالَهُ سِوَى صُورَةِ الطَّائِرِ المَهِيبِ وَ اللُّؤْلُؤَةُ التِّي تَوَسَّطَتْ قِمَّةَ الجَبَلِ وَ قَدْ قَطَعَ عَلَى نَفْسِهِ وَعْدًا بِالاِنْتِصَارِ وَ التَّفَوُّقِ .

اسْتَيْقَظَ ادام مَعَ أُولَى نَسَمَاتِ الفَجْرِ وَ بَعْدَ أَنْ تَزَوَّدَ بِمَا يَحْتَاجُهُ وَدَّعَ وَالِدَيْهِ وَ انْطَلَقَ فِي اتِّجَاهِ الجَبَلِ . كَانَتِ الطَّرِيقُ أَطْوَلَ مِمَّا تَخَيَّلَ وَ رَغْمَ وُعُورَتِهَا ظَلَّ يَسِيرُ دُونَ أَنْ يَفْقِدَ قُوَّتَهُ وَ إِيمَانُهُ بِقُدُرَاتِهِ . كَانَ يَنْظُرُ إِلَى الأُفُقِ أَمَامَهُ وَ يَتَخَيَّلُ اللُّؤْلُؤَةَ تَدْنُو مِنْهُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ خُطْوَةً.

تَوَزَّعَتِ الأَشْجَارُ العَالِيَةُ حَيْثُمَا حَلَّ و اسْتَعْمَرَتِ الحُفَرُ القَاسِيَةُ التّي أَنْشَأَتْهَا السَّنَاجِبُ حُدُودَ المَكَانِ فَكَانَ يَتَحَدَّى السُّقُوطَ وَ يَنْهَضُ كُلَّ مَرَّةٍ بِعَزْمٍ أَكْبَرَ وَ كَأَنَّ فِي وُقُوعِهِ شَحْذٌ لِلْهِمَمِ . يَنْظُرُ إِلَى الجَبَلِ فَيَرَاهُ بَعِيدًا وَ يَتَذَكَّرُ حُلْمَهُ فَيَقْتَرِبُ المَكَانُ مِنْ خَيَالِهِ . اسْتَمَرَّ فِكْرُهُ يُرَاوِحُ بَيْنَ الحُلْمِ وَ وَاقِعِ الغَابَةِ وَ طُولِ الطَّرِيقِ إِلَى أَنْ تَغَيَّرَ لَوْنُ الفَضَاءِ وَ بَدَأَتِ الشَّمْسُ تُعْلِنُ رَحِيلَهَا. عَلِمَ أَنَّ الظَّلاَمَ سَيَحِلُّ قَرِيبًا وَ لَا رَفِيقَ وَ لاَ نُورَ يَهْدِيهِ السَّبِيلَ فَتَخَيَّرَ شَجَرَةً كَثِيفَةً الأَغْصَانِ وَ الأَوْرَاقِ لِيَقْضِي عَلَيْهَا لَيْلَتَهُ عَلَّ عُلُوّهَا يَحْمِيه مِنْ بَطْشِ السِّبَاعِ .

مَضَتْ اللَّيلَةَ ثَقِيلَةً مُمِلَّةً . كَانَ يُنْصِتُ إِلَى عُوَاءِ الذِّئَابِ وَ حَفِيفِ الأَفَاعِي وَ يَتَجَاهَلُ الأَمْرَ وَ قَدْ زَادَتْهُ أَحْلاَمُهُ شَجَاعَةً وَ بَأْسًا فَغَدَا قَلْبًا مِقْدَامًا لَا يَخْشَى شَيْئًا. وَ رَغْمَ كُلِّ التَّعَبِ لَمْ يُلاَمِسْ النَّوْمُ نَاظِرِيْهِ . ظَلَّ يَرْقُبُ حَرَكَةَ الحَيَوَانَاتِ وَ هِيَ تَتَرَصَّدُ فَرَائِسَهَا وَتَعْبَثُ بِالأَجْسَادِ الضَّعِيفَةِ وَ تُثْبِتُ لِلْكَوْنِ أَنَّ البَقَاءَ بَاتَ حِكْرًا عَلَى أَصْحَابِ البَأْسِ إِذْ يَبِيدُ الضُّعَفَاءُ قَهْرًا وَ هَمًّا . رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَعُدُّ نُجُومَهَا وَ يَتَتَبَّعُ الشُّهُبَ وَ هِيَ تَرْسُمُ دَرْبًا فِي الفَضَاءِ سُرْعَانَ مَا يَخْتَفِي . ثُمَّ نَظَرَ صَوْبَ الجَبَلِ فَلَمْ يَرَ مِنْ هَيْكَلِهِ العِمْلَاقِ الذِّي لَفَّهُ الظَّلاَمُ شَيْئًا إِلَّا شُعَاعًا صَاعِدًا مِنْ قَلْبِ قِمَّتِهِ فَابْتَسَمَ وَ تَخَيَّلَ

لَحْظَةَ الفَوْزِ بِالرِّهَانِ حِينَ يَؤُولُ الوَادِي مُجَرَّدَ ذِكْرَى بَائِسَة .

مَرَّتِ السَّاعَاتُ ثِقَالًا إِلَى أَنْ انْسَحَبَ الظَّلَامُ بَطِيئًا وَ اسْتَقَرَّ الفَجْرُ بِنَسَائِمِهِ يَحُثُّ آدَامَ عَلَى اسْتِئْنَافِ النضَالِ . رَحَّبَ الصَّبِيُّ بِالنُّورِ وَ نَزَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ثُمَّ رَمَقَ الجَبَلَ قَائِلًا :

- إِنِّي قَادِمٌ إِلَيْكَ أَيُّهَا الشَّامِخُ العَتِيدُ .

سَارَ عَلَى عَجَلٍ . كَانَ يُرَاقِبُ قَدَمَيْهِ وَ هِيَ تُسَابِقُ الطَّرِيقَ و يَتَذَكَّرُ سَاقَيْ جُونْ المَيّتَتَيْنِ فَتَتَضَاعَفُ سُرْعَتُهُ وَ تَضْحَى السَّبِيلُ مُتْعَةً وَ حُبُورًا عَلَى قَسْوَتِهَا .

اِنْتَصَفَ يَوْمُهُ وَ اشْتَدَّ الحَرُّ فَاسْتَبَدَّ بِهِ الأَرَقُ وَ التَّعَبُ . عِنْدَهَا اِسْتَنَدَ إِلَى جِذْعِ شَجَرَةٍ . وَضَعَ يُمْنَاهُ فِي التُّرَابِ وَ أَخَذَ يَرْفَعُهُ وَ يُلْقِيهِ عَلَى حَجَرٍ انْتَصَبَ أَمَامَهُ وَ تَذَكَّرَ الوَادِي وَ قَعْرَهُ الذّي اِبْتَلَعَ أَكْيَاسًا مِنَ الرَّمْلِ دُونَ أنْ يَطْرَأَ عَلَيْهِ تَغْيِيرٌ .

سُرْعَانَ مَا غَادَرَ المَكَانَ وَ وَاصَلَ طَرِيقَهُ رَكْضًا رِبْحًا لِلْوَقْتِ فَأُمُّهُ تَنْتَظِرُهُ وَ فِي فِكْرِهَا زَخَمٌ مِنَ الأَسْئِلَةِ وَ عَالَمٌ مِنَ الحَيْرَةِ يَقُضُّ مَضْجَعَهَا . تَذَكَّرَ دَمْعَتَهَا فَحَثَّ خُطَاهُ إِلَى أَنْ تَرَاءَى لَهُ الجَبَلُ قَرِيبًا. سَعِدَ بِذَلِكَ وَ أَحَسَّ

أَنَّهُ يَضَعُ أَوَّلَ لَبِنَاتِ حُلْمِهِ عَلَى أَدِيمِ وَاقِعِهِ . وصَلَ السَّفْحَ وَ رَفَعَ هَامَتَهُ إِلَى الأَعْلَى وَ قَالَ :

- يَا لِعُلُوِّكَ أَيُّهَا الجَبَلُ .إِنِّي أَرَاكَ تُعَانِقُ السَّمَاءَ فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْكَ ؟

رَدَّدَ الصَّدَى مَا قَالَهُ الصَّبِيُّ وَ كَأَنَّ الكَوْنَ يُرِيدُ تَثْبِيتَ بَدْءِ الصِّرَاعِ .

نَظَرَ آدَامُ إِلَى السَّفْحِ وَ عَلِمَ مِنْ قَسْوَتِهِ وُعُورَةَ سَبِيلِهِ . جَلَسَ يَتَفَكَّرُ فِي صُعُوبَةِ الإِرْتِقَاءِ إِلَى القِمَّةِ وَ كَيْفَ سَيُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ . أَحَسَّ أَنَّ شَيْئًا يَشُدُّهُ إِلَى السَّفْحِ وَ يُقْنِعُهُ أَنَّ رَاحَةَ الجَسَدِ تُعَادِلُ أَلْفَ لُؤْلُؤَةٍ فَرَاحَ يَتَأَمَّلُ مَاهُوَ مُقْدِمٌ عَلَيْهِ . ظَلَّ جَالِسًا عَلَى السَّفْحِ بُرْهَةً إِلَى أَنْ لَفَتَتْ نَظَرَهُ نَمْلَةٌ تُحَاوِلُ رَفْعَ قَشَّةٍ وَ رَغْمَ مُعَاوَدَةِ السُّقُوطِ ظَلَّتْ تُعِيدُ المُحَاوَلَةَ وَ تُغَيِّرُ طَرِيقَهَا إِلَى أَنْ تَمَكَّنَتْ مِنْ بُلُوغِ هَدَفِهَا .

تَعجَّبَ آدَامُ مِنْ إِصْرَارِ تِلْكَ الحَشَرَةِ الضَّعِيفَةِ عَلَى تَحْقِيقِ مُبْتَغَاهَا وَ اسْتَغْرَبَ جُلُوسَهُ وَ اللُّؤْلُؤَةُ فِي الأَعْلَى تَنْتَظِرُهُ .

أُعْجِبَ بِأُسْلُوبِ النَّمْلَةِ فَسَارَ عَلَى مِنْوَالِهَا وَ قَامَ يَبْحَثُ عَنْ سَبِيلٍ أَيْسَرَ تُمَكِّنَهُ مِنْ وَضْعِ قَدَمَيْهِ عَلَى قِمَّةِ

الجَبَلِ فِي وَقْتٍ وَجِيزٍ . فَمَضَى يُعَايِنُ المَكَانَ عَلَى امْتِدَادِهِ وَ يَتَحَسَّسُ الأَرْضَ وَ التُّرَابَ إِلَى أَنْ رَأَى جَانِبًا مِنَ الجَبَلِ أَرْضُه صلْبَة وَ حِجَارَتُهُ ثَابِتَةٌ مُتَتَابِعَةٌ كَأَنَّهَا قُدَّتْ عَلَى يَدِ فَنَّانٍ . أَسْعَدَهُ مَا رَأَى وَ شَكَرَ النَّمْلَةَ ثُمَّ بَدَأَ التَّسَلُّقَ . سَارَ بِحَذَرٍ وَ ثَبَاتٍ حَتَّى بَلَغَ مُنْتَصَفَ الطَّرِيقِ. عِنْدَهَا جَلَسَ عَلَى حَجَرٍ صَغِيرٍ وَ مَدَّ بَصَرَهُ حَيْثُ الوَادِي وَ مَنْزِلُهُ فَمَا رَأَى إِلَّا فَضَاءً وَ أَشْجَارًا تَرْنُو إِلَى السَّمَاءِ .

أَحَسَّ كَأَنَّ ظِلًّا اِحْتَوَى المَكَانَ عَلَى عَظَمَتِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذَا الطَّائِرُ المَهِيبُ قَدْ بَسَطَ جَنَاحَيْهِ مُعْلِنًا حُضُورَهُ ثُمَّ ارْتَفَعَ عَالِيًا وَ تَوَارَى عَنِ الأَنْظَارِ . عَلِمَ آدَاُم أَنَّ قُوَّةَ الخَيْرِ تَرْقُبُهُ مِنْ بَعِيدٍ فَوَدَّعَ الْحَجَرَ وَ تَابَعَ السَّيْرَ . شَعُرَ أَنَّ اللُّؤْلُؤَةَ تَنْتَظِرُهُ وَ تُنَادِيهِ فَتَأَمَّلَ يَمِينَهُ وَ هِيَ تَقْبِضُ بِقُوَّةٍ عَلَى الصَّخْرِ وَ هَمَسَ :

- هُنَاكَ فِي الأَعْلَى سَتُلاَمِسِينَ لُؤْلُؤَةً نُورُهَا يُضِيءُ الكَوْنَ . أُرِيدُ مِنْكَ فَيْضًا مِنَ العَزْمِ . اثْبُتِي عَلَى مَا أَنْتِ فِيهِ مِنْ هِمَّةٍ وَ لَا تَتَرَاجَعِي .

فَجْأَةً أَحَسَّ حَجَرًا تَحْتَ قَدَمِهِ اليُسْرَى يَتَزَحْزَحُ عَنْ مَكَانِهِ . كَانَ يَعْلَمُ جَيِّدًا أَنْ لاَ شَيْءَ يَنْتَظِرُهُ فِي الأَسْفَلِ غَيْرَ المَوْتِ إِنْ هُوَ سَقَطَ فَتَشَبَّثَ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ اتَّخَذَتْ

حَيَاةً عَلَى جِدَارِ الجَبَلِ غَيْرَ أَنَّ الحَظَّ خَانَهُ هَذِهِ المَرَّةَ إِذْ لَمَحَ الغُصْنَ يَنْفَصِلُ عَنْ أَصْلِهِ فَأَطْلَقَ صَرْخَةً رَدَّدَ صَدَاهَا الجَبَلُ وَ ارْتَاعَتْ لِهَوْلِهَا الكَائِنَاتُ وَ رَأَى جِسْمَهُ الصَّغِيرَ يَتَهَاوَى نَحْوَ الفَنَاءِ وَ العَدَمِ ، فَجْأَةً شَعُرَ بِقَبْضَةٍ تتَلَقَّفُهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَ الأَرْضِ . لَمْ يُصَدِّقْ مَا حَدَثَ وَ قدْ اسْتَوَى عَلَى كَفِّ عِفْرِيتٍ ضَخْمٍ اِمْتَدَّ جِسْمُهُ عَلَى عَرْضِ الجَبَلِ. أَحَسَّ أَنَّهُ مَا عَادَ يَنْتَمِي إِلَى العَالَمِ الذّي جَاءَ مِنْهُ . إِنَّهُ عَالَمٌ أُسْطُورِيٌّ سيَرْسُمُ طَرِيقَ نِضَالِهِ نَحْوَ الإِنْتِصَارِ . نَظَرَ إِلَى العِفْرِيتِ وَ سَأَلَهُ مُسْتَغْرِبًا:

- مِنْ أَيْنَ جِئْتَ ؟ وَ كَيْفَ أَتَيْتَ ؟ إِنّي لَكَ شَاكِرٌ مُمْتَنٌّ.

ظَلَّ العِفْرِيتُ صَامِتًا وَ سَارَ بِالطِّفْلِ إِلَى الأَعْلَى . وَضَعَهُ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ ثُمَّ اخْتَفَى وَ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ .

لَمْ يَتَحَرَّكْ آدَامُ إِنَّمَا ظَلَّ يَجُوبُ الأَرْضَ وَ الفَضَاءَ بِنَظَرِهِ بَاحِثًا عَنِ الكَائِنِ الذّي أَنْقَذَهُ غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ لَهُ أَثَرًا .

ظَلَّ بُرْهَةً مَشْدُوهًا ثُمَّ وَاصَلَ سَيْرَهُ بِقَدَمَيْنِ ثَابتَتَيْن وَ عُيُونٍ تُحَاوِلُ رَصْدَ الخَطَرِ حَيْثُمَا كَانَ وَ تَرْنُو إِلَى القِمَّةِ بِعَزْمٍ وَقَّادٍ . كَانَتِ اللُّؤْلُؤَةُ تسْتَقِرُّ خَيالًا جَمِيلًا فِي

فِكْرِهِ إِلَى أَنْ لَامَسَ آَخِرَ حَجَرٍ فَصَلَ بيْنَ القِمَّةِ وَ هَيْكَلِ الجَبَلِ. نَظَرَ سَاعَتَهَا إِلَى الفَضَاءِ وَ لَا شَيْءَ يَفْصِلُهُ عَنِ الأُفُقِ الحُرِّ ثُمَّ قَالَ بِصَوْتِ البطَلِ الثَّابِتِ :

- هَا قَدْ لاَمَسَتْ رَاحَتِي حَجَرَ الفَصْلِ فَهَلُمَّ يَا إِرَادَتِي نَقْتَلِعُ اللُّؤْلُؤَةَ مِنْ أَصْلِهَا .

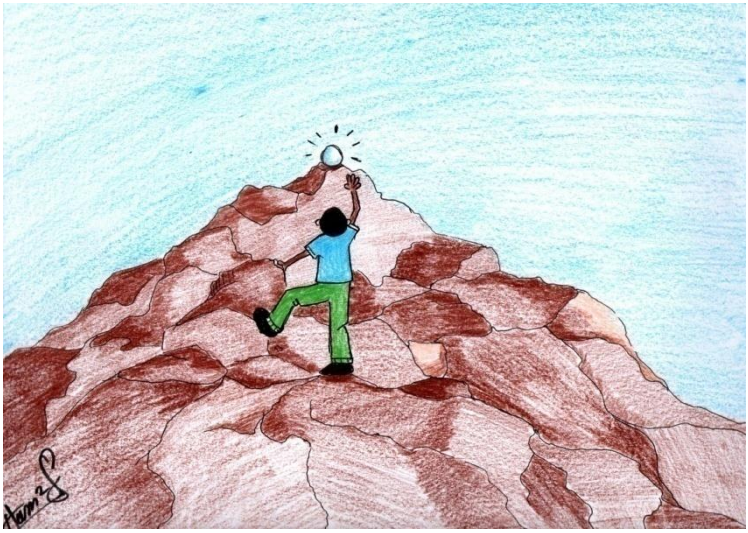

تَرَدَّدَتْ شِدَّةُ صَوْتِهِ بَيْنَ ثَنَايَا الصَّدَى ثُمَّ تَشَبَّثَ جَيِّدًا بالحَجَرِ وَ بِخُطْوَةٍ وَاحِدَةٍ اسْتَقَرَّ وَاقِفًا قُرْبَ اللُّؤْلُؤَةِ. انْفَرَجَتْ شَفَتَاهُ تَبَسُّمًا وَ جَثَمَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ

لِيُقَبِّلَ الصَّخْرَ الذِّي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الجِسْمُ المُشِعُّ غَيْرَ أَنَّ صَوْتًا مُدَوِّيًا نَادَاهُ مِنْ نُقْطَةٍ لَامَسَتِ السَّمَاءَ :

ـ لَسْتَ هُنَا لِتَرْكَعَ أَوْ تُقَبِّلَ حَجَرًا يَا آدَامُ . أَنْتَ هُنَا لِتَرْفَعَ مِشْعَلَ الأَبْطَالِ . اقْتَلِعْ اللُّؤْلُؤَةَ ثُمَّ امْضِ .

هَزَّ بَصَرَهُ فَإِذَا الطَّائِرُ العِمْلاَقُ يَحُومُ أَعْلَى القِمَّةِ . ظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَ يَبْتَسِمُ فَخَاطَبَهُ قَائِلًا :

ـ هَيَّا أَيُّهَا المِقْدَامُ . افْعَلْ مَا أُمِرْتَ .ثُمَّ اهْبِطْ الجَبَلَ مِنْ نَفْسِ السَّبِيلِ التِّي سَلَكْتَهَا صَاعِدًا .

وَضَعَ يَدَهُ عَلَى اللُّؤْلُؤَةِ يُرِيدُ اقْتِلَاعَهَا غَيْرَ أَنَّ حَجْمَهَا وَ صَلَابَتَهَا جَعَلَاهَا تثْبُتُ فِي مَكَانِهَا ، عِنْدَهَا تَذَكَّرَ أَنَّ القُوَّةَ مَا كَانَتْ دَائِمًا سَبِيلَ التَّغَلُّبِ عَلَى المَصَاعِبِ وَ قَدْ عَلِمَ أَنَّ مَا يُبْلَغُ بِاللّينِ قَدْ لَا يُبْلَغُ بِالجَأْشِ أَحْيَانًا . وَضَعَ أَصَابِعَهُ بِكُلِّ رِفْقٍ أَسْفَلَ اللُّؤْلُؤَةِ وَ بدَأَ يُدِيرُهَا فِي اتِّجَاهِ الشَّمْسِ وَ لَمَّا اسْتَوَى شُعَاعُهَا مَعَ مَوْضِعِ الشُّرُوقِ انْفصَلَتْ عَنْ أَصْلِهَا وَ اسْتَقَرَّتْ فِي يَمِينِهِ . وَضَعَهَا بَيْنَ كَفَّيْهِ وَ تَحَسَّسَ نُعُومَتَهَا و تمَعَّنَ جَمَالَهَا وَ شُعَاعَهَا المُمْتَدَّ نَحْوَ الْأُفُقِ ثُمَّ وَضَعَهَا فِي حَقِيبَتِهِ الّتِي صَاحَبَتْهُ طِوَالَ الرِّحْلَةِ وَ قَفَلَ رَاجِعًا . كَانَ النُّزُولُ أَعْسَرَ مِنَ الصُّعُودِ غَيْرَ أَنَّ النَّصْرَ الرَّائِعَ أَنْسَاهُ مَشَقَّتَهُ فَتَتَابَعَتْ خُطُوَاتُهُ بِثِقَةٍ وَ رَصَانَةٍ وَ لَمَّا بَلَغَ مُنْتَصَفَ طَرِيقِهِ سَمِعَ الطَّائِرَ يُنَادِيهِ :

- آدَامُ : اصْعَدْ . الأَبْطَالُ يَعُودُونَ عَلَى الأَعْنَاقِ فَهَيَّا اِعْتَلِ عُنُقِي .

اِلْتَصَقَ الطِّفْلُ بِعُنُقِ الطَّائِرِ العِمْلاَقِ الذّي حَلَّقَ بِهِ عَالِيًا وَ كَادَ يُلاَمِسُ أَبْعَدَ نُقْطَةٍ فِي الأُفُقِ . قَالَ لَهُ :

- كَيْفَ كَانَتِ الطَّرِيقُ إِلَى الجَبَلِ ؟

رَدَّ آدَامُ :

- اخْتَرْتُ أَيْسَرَهَا غَيْرَ أَنِّي شَارَفْتُ عَلَى الهَلَاكِ لَوْلَا قُوَّةٍ خَارِقَةٌ تَجَسَّدَتْ عَلَى هَيْأَةِ عِفْرِيتٍ حَضَرَتْ لَحْظَةَ سُقُوطِي وَأَهْدَتْنِي عُمُرًا جَدِيدًا.

ضَحِكَ الطَّائِرُ وَ قَالَ :

- أَ تَعْلَمُ مَنْ هُوَ ذَلِكَ العِفْرِيتُ ؟

قَالَ آدَامُ :

- وَ كَيْفَ لِي أنْ أَعْرِفَ ؟

رَدَّ الطَّائِرُ :

- أَنَا يَا آدَامُ مَنْ زَحْزَحَ الحَجَرَ تَحْتَ قَدَمَيْكَ . أَرَدْتُ أَنْ أَخْتَبِرَ مَدَى تَحَدِّيكَ لِلْمَخَاطِرِ وَ إِصْرَارِكَ عَلَى إِثْبَاتِ إِرَادَتِكَ . ثُمَّ اسْتَوَيْتُ عِفْرِيتًا عَظِيمًا مُمْتَدًّا وَ تَلَقَّفْتُكَ سَاعَةَ تَهَاوَيْتَ . كُنْتُ أَرْقُبُكَ مِنْ بَعِيدٍ بِعَيْنٍ يَقِظَةٍ وَ لَمْ أُفَارِقْكَ لَحْظَةً حَتَّى بَلَغْتَ القِمَّةَ وَ كُنْتَ أَهْلًا لِلأَعَالِي وَ مَا كُنْتَ أَقَلَّ إِشْعَاعًا مِنَ اللُّؤْلُؤَةِ . أَحْسَنْتَ يَا بَطَلُ.

ابْتَسَمَ آدَامُ وَ شَكَرَ الطَّائِرَ ثُمَّ تَابَعَ حَرَكَةَ الرِّيشِ الأَبْيَضِ يَتَرَاقَصُ فِي الْفَضَاءِ عَلَى أَنْغَامِ الأَمَلِ وَ الْحُرِّيَةِ.

قَالَ الطَّائِرُ وَهُوَ يَنْسَابُ فِي الجوِّ الفَسِيحِ :

- وَ أَنْتَ ثَابِتٌ عَلَى عُنُقِي أُنْظُرْ إِلى ذَلِكَ الأُفُقِ البَعِيدِ وَ حَرِّرْ أُمْنِيَاتِكَ .إِنّي سَأُحَقِّقُ لَكَ كُلَّ مَا تَرْنُو إِلَيْهِ .

قَالَ الطِّفْلُ وَ هُوَ يُلْقِي بِنَظَرِهِ إِلَى الفَضَاءِ الحُرِّ :

- الأَمَانِي كَثِيرَةٌ لَكِنْ مَا سَكَنَ خَاطِرِي مِنَ الأَحْلَامِ قَلِيلٌ. أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ مَا خُضْتُ مِنْ أَجْلِهِ النِّزَاعَ هُوَ أَنْ أَجْعَلَ الوَادِي مُنْبَسِطًا يَرْبِطُ بَيْنَ السَّهْلَيْنِ فَتُصْبِحُ السَّبِيلُ حُرَّةً إِلَى المَدْرَسَةِ غَيْرَ أَنَّ أَوَّلَ مَا أَتَمَنَّاهُ الآنَ هُوَ أَنْ تَعُودَ الحَيَاةُ إِلَى سَاقَيْ صَدِيقِي جُونْ وَ لَقَدْ وَعَدْتُهُ أَنْ أُهْدِيَهُ اِنْتِصَارِي .

زَادَ ارْتِفَاعُ الطَّائِرِ فِي الفَضَاءِ وَ قَالَ وَ هُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَرَى الطِّفْلَ المُسْتَقِرَّ خَلْفَهُ :

- شَهَامَتُكَ كَمَا إِقْدَامُكَ جَعَلاَكَ عَظِيمًا . أَنَا رَهْنُ إِشَارَتِكَ فَمَتَى تُرِيدُ أَنْ تَتَّجِهَ إِلَى بَيْتِ رَفِيقِكَ ؟

صَفَّقَ آدَامُ غِبْطَةً وَ كادَ أَنْ يَفْقِدَ تَوَازُنَهُ غَيْرَ أَنَّهُ سُرْعَانَ مَا تَمَاسَكَ وَ قَالَ :

- أَحَقًّا مَا تَقُولُ ؟ لَيْتَكَ تَحْمِلُنِي إِلَيْهِ الآنَ .

قَالَ الطَّائِرُ :

- مَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُحَدِّدَ مَوْقِعَ مَنْزِلِ جُونْ وَ لنَكُنْ عِنْدَهُ حَالًّا .

طَارَ الطَّائِرُ صَوْبَ بَيْتِ الفتى وَ حَطَّ عِنْدَ شَجَرَةٍ قُرْبَ بَابِهِ . عِنْدَهَا هَبَطَ آدَامُ فَقَالَ لَهُ مَلِكُ الفَضَاءِ :

- خُذِ اللُّؤْلُؤَةَ وَ ضَعْهَا عَلَى سَاقَيْ رَفِيقِكَ وَ سَيَحْدُثُ مَا تُرِيدُهُ .

إِنْطَلَقَ آدَامُ نَحْوَ صَدِيقِهِ . نَادَاهُ لَكِنَّهُ لَمْ يُجِبْ فَهَرَعَ إِلَى غُرْفَتِهِ حَيْثُ أَلْفَاهُ نَائِمًا . تَأَمَّلَ السَّاقَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ وَ قَدْ ارْتَخَتَا عَلَى الكُرْسِيِّ ثُمَّ أَخْرَجَ اللُّؤْلُؤَةَ وَ بِكُلِّ رِفْقٍ مَرَّرَ كَفَّهُ عَلَى رَأْسِ صَدِيقِهِ يُرِيدُ أَنْ يُوقِظَهُ . فَتَحَ جُونْ عَيْنَيْهِ فَرَأَى آدَامَ وَاقِفًا أَمَامَهُ . قَالَ وَ قَدْ سُرَّ لِرُؤْيَتِهِ :

- مَرْحَبًا بِكَ يَا صَدِيقِي . كَيْفَ حَالُكَ ؟

رَدَّ آدَامُ :

- إِنِّي عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ وَ قَدْ جِئْتُكَ لِأُحَرِّرَكَ مِنْ أَسْرِ هَذَا الكُرْسِيِّ . هَيَّا مُدَّ سَاقَيْكَ وَ انْظُرْ مَا أَنَا فَاعِلُ .

اِبْتَسَمَ جُونْ وَ قَالَ :

- وَ مَاذَا سَتَفْعَلُ فِي نِصْفٍ أُعْلِنَ مَوْتُهُ مُنْذُ أَشْهُرٍ ؟

رَدَّ آدَامُ وَ هُو يُمْسِكُ اللُّؤْلُؤَةَ بِيَدِهِ :

- أَ رَأَيْتَ هَذِهِ ؟ سَأُمَرِّرُهَا عَلَى سَاقَيْكَ ثُمَّ حَاوَلْ الوُقُوفَ.

فَعَلَ جُونْ مَا طُلِبَ مِنْهُ فَرَاحَ آدَامُ يُمَرِّرُ اللُّؤْلُؤَةَ عَلَى الجُزْءِ المَأْسُورِ مِنْ جَسَدِ خَلِيلِهِ ثُمَّ أَعَادَهَا مَكَانَهَا . عِنْدَهَا طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَسْتَقِيمَ فِي جِلْسَتِهِ و يُحَاوِلَ الوُقُوفَ .أَمْسَكَ جُون بِقَبْضَتَيْهِ حَدَّيْ الكُرْسِيّ فَاسْتَقَامَ وَاقِفًا . تَقَدَّمَ خُطُوَاتٍ فَعَلِمَ أَنَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالُهُ وَاقِعٌ وَ أَنَّ أَمْرًا خَارِقًا حَقَّقَ مُعْجِزَةً . تَقَدَّمَ نَحْوَ آدَامُ وَ قَدْ غَمَرَتْهُ فَرْحَةٌ عَارِمَةٌ فَاحْتَضَنَهُ وَ قَالَ :

- مَعْرُوفٌ لَنْ أَنْسَاهُ مَا حَيِيتُ وَ إِنِّي آمَنْتُ بِإِرَادَتِكَ و عَزْمِكَ . أَنْتَ بَطَلُ هَذَا المَكَانِ وَ أُسْطُورَةُ زَمَانِك . قَالَ آدَامُ :

- هَذَا وَاجِبِي وَ إِنِّي عَلَى وَعْدِي . أَ تَذْكُرُ حِينَ قُلْتُ أَنَّ انْتِصَارِي هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَيْكَ ؟

قَالَ جُونْ :

ـ أَذْكُرُ كُلَّ كَلَامِكَ وَ أَذْكُرُ أَنَّ أَمْثَالَكَ قَلاَئِلُ . لَكِنْ هَلْ انْتَصَرْتَ عَلَى الْوَادِي ؟

تَقَدَّمَ آدَامُ وَ وَضَعَ يَمِينَهُ بِيَدِ رَفِيقِهِ وَ قَال:

ـ سِرْ مَعِي إِلَى الخَارِجِ وَ انْظُرْ إِلَى مَاهُوَ رَابِضٌ أَمَامَ مَنْزِلِكَ وَ لَا تَتَسَاءَلْ كَثِيرًا . سَأُفَسِّرُ لَكَ كُلَّ مَا حَدَثَ لَاحِقًا .

خَرَجَ الرَّفِيقَانِ وَ كَادَتْ أَنْ تَسْبِقَ عَيْنَا جُونْ خُطْوَتَهُ. تَسَمَّرَ وَاقِفًا لِضَخَامَةِ الطَّائِرِ الذّي اسْتَقَرَّ عِنْدَ البَابِ . فَغَرَ فَاهُ وَ قَدْ هَالَهُ الجِسْمُ العِمْلاَقُ وَ العَيْنَانِ المُتَّقِدَتَانِ حِكْمَةً ثُمَّ التَفَتَ إِلىَ آدَامَ مُتَسَائِلاً :

ـ مَا هَذَا ؟ يَا لَرَوْعَتِهِ ! أَ مِنْ عَالَمِنَا أَمْ أَنَّكَ اِرْتَدْتَ عَالَمَ الخَيَالِ فَاتَّخَذْتَ هَذَا الطَّائِرَ الجَلِيلَ رَفِيقًا ؟

رَدَّ آدَامُ :

ـ حِكَايَةٌ طَوِيلَةٌ سَتَسْمَعُهَا فِيمَا بَعْدُ . تَعَالَ الآنَ مَعِي نَعْتَلِ هَذَا الجِسْمَ الشَّامِخَ وَ نُحَرِّرْ سَهْلَنَا مِنَ الغَوْرِ السَّحِيقِ .

بَسَطَ الطَّائِرُ جَنَاحَيْهِ عَلَى الأَرْضِ فَتَسَلَّقَهُما الطِّفْلاَنِ وَ تمَسَّكَا بِعُنُقِهِ ثُمَّ حَلَّقَ فِي الفَضَاءِ ، وَ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا

إِلَى الوَادِي طَلَبَ آدَامُ مِنَ الطَّيْرِ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ حَيْثُ مَنْزِلُهُ . خَرَجَ الأَبَوَانِ وَ قَدْ سَمِعَا رَفْرَفَةً قَوِيَّةً فِي الخَارِجِ . اقْتَرَبَ الأَبُ مِنْ اِبْنِهِ يَسْأَلُهُ عَنِ الرِّحلَةِ وَ كَيْفَ كَانَتْ الطَّرِيقُ. أَمَّا تَانْيَا فَظَلَّتْ تَتَأَمَّلُ اِبْنَهَا مِنْ بَعِيدٍ وَ تُحَاوِلُ أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ سَلَامَتِهِ وَ قَدْ تَعَجَّبَتْ لِمَا رَأَتْ وَ أَحَسَّتْ أَنَّهَا فِي وَسَطٍ غَيْرِ وَسَطِهَا الإِعْتِيَادِي . نَزَلَ ادَامُ وَ سَلَّمَ عَلَى أَبَوَيْهِ وَ أَجَّلَ تَفْسِيرَ مَا حَدَثَ إِلَى مَا بَعْدَ العَوْدَةِ مَسَاءً إِلَى المَنْزِلِ ثُمَّ طَلَبَ مِنْهما أَنْ يَتْبَعَاهُ إِلَى الوَادِي .

انْطَلَقَ الطَّائِرُ يَشُقُّ طَرِيقًا فَسِيحَةً فِي الفَضَاءِ ثُمَّ طَافَ فَوْقَ الوَادِي . قَالَ آدَامُ :

- مَاذَا لَوْ مَكَّنْتَنَا مِنْ جَوْلَةٍ فِي القَاعِ الغَامِضِ قَبْلَ أَنْ يَتَوَارَى . أُرِيدُ أَنْ أَرَاهُ عَنْ قُرْبٍ .

حَرَّكَ الطَّائِرُ رَأْسَهُ مُوَافِقًا ثُمَّ هَبَطَ بِبُطْءٍ فَانْطَلَقَ الطِّفْلَانِ يَجُوبَانِ المَكَانَ الذِّي حَاصَرَتْهُ الصُّخُورُ فَاسْتَحَالَ مَتَاهَةً يَصْعُبُ فَهْمُهَا . نَظَرَ الصِّبِيَّانُ إِلَى السَّهْلِ المُمْتَدِّ أَعْلَى الوَادِي فَرَأَيَا جَاكْ وَ دَانِي وَ كُلَّ سُكَّانِ الغَابَةِ وَ قَدْ اِسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمُ الحَيْرَةُ . كَانَتْ تَانْيَا تَنْظُرُ إِلَى وَلَدِهَا فِي الأَسْفَلِ وَ تصِيحُ :

- ارْجَعْ يَا بُنَيَّ . لَا تَأْمَنْ هَذَا السَّحِيقَ .

لَوَّحَ لَهَا آدَامُ مِنَ الأَسْفَلِ ثُمَّ سَارَ مَعَ جُونْ نَحْوَ الصَّخْرَةِ التِّي لَازَالَتْ مُتَصَبِّغَةً بِدِمَائِهِ وَ قَالَ :

- خَرَجْتَ مِنْهُ فَاقِدًا لِلْحَرَكَةِ وَ هَا أَنْتَ تَدُوسُهُ الآنَ بِقَدَمَيْكَ وَ تَسِيرُ عَلَى ثَرَاه وَ صَخْرِهِ .

الْتفَتَ جُونْ إِلَى صَدِيقِهِ وَ قَالَ :

- لَكَ الفَضْلُ فِي مَا أَنَا عَلَيْهِ. لَيْتَنِي أَرُدُّ بَعْضًا مِنْ جَمِيلِكَ.

قَالَ آدَامُ :

- أَنْ تُشَارِكَنِي لَحْظَةَ النَّصْرِ فَذَاكَ كُلُّ مَا أُرِيدُهُ . حُضُورُكَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ هُوَ مَا يُسْعِدُنَا جَمِيعًا . ثُمَّ إِلْتَصَقَا بِالطَّائِرِ وَ خَرَجَا مِنَ القَاعِ . وَضَعَ الطَّائِرُ الطِّفْلَيْنِ ثُمَّ اعْتَلَى شَجَرَةً وَ خَاطَبَ الجَمْعَ الوَاقِفَ أَمَامَهُ:

- الأَبْطَالُ تَصْنَعُهُمْ إِرَادَتُهُمْ . إِنَّ العَزْمَ يَنْحِتُ النَّصْرَ عَلَى أَرْضِ المَصَاعِبِ وَ إِنِّي أَرَى فِي آدَامَ عَزْمًا تَجَسَّدَ فِي إِنْسَانٍ . وَ لِتَفَانِيهِ فِي عَمَلِهِ وَ إِخْلَاصِهِ لِأَحْلَامِهِ سَيَسْتَحِيلُ هَذَا العُمْقُ الذِّي اِمْتَدَّ بَيْنَ السَّهْلَيْنِ وَ قَسَمَ

الأَرْضَ مُنْبَسَطًا يُقَرِّبُ السَّفْحَ وَ الجَبَلَ وَ المَدْرَسَةَ . هَذَا الصَّبِيُّ الْفَذُّ حَمَلَ بِدَاخِلِهِ حُلْمًا هُوَ فِي الأَصْلِ حُلْمُ النَّاسِ جَمِيعًا ، فَأَمَانِيهِ لَمْ تَكُنْ لِذَاتِه .

هَتفَ الحَاضِرُونَ بِصَوْتٍ وَاحِدٍ :

- إِنَّا لَنَرَى فِي آدَامَ مِثَالًا لِلإِقْدَامِ وَ الوَفَاءِ وَ مَهْمَا مَدَحْنَاهُ لَنْ نُوفِيَهُ حَقَّهُ .

قَالَ آدَامُ :

- أَنْتُمْ عُزْوَتِي وَ أَهْلِي، وَ إِنِّي أَرَى فِيكُمْ بَعْضًا مِنِّي . أَحْلَامِي وَ إِنْ كَبُرَتْ بِدَاخِلِي فَقَدْ كَبُرَتْ مِنْ جَمَالِ أَرْوَاحِكُمْ وَ حُبِّكُمْ لِلْخَيْرِ . أَشْكُرُ لَكُمْ حُضُورَكُمْ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ الفَاصِلَةِ بَيْنَ اليَأْسِ وَ الأَمَلِ , لَحْظَةَ إِعْدَامِ القَاعِ وَ وَضْعِ اللَّبِنَةَ الأُولَى لِصَرْحِ الْأَمَلِ عَلَى أَنْقَاضِ ظُلْمَةِ الفِكرِ .

صَفَّقَ الجَمِيعُ وَ هَتَفُوا بِاسْمِ بَطَلِهِمْ فَرَدَّدَهُ الصَّدَى ثُمَّ انْتَفَضَ الطَّائِرُ مِنْ فَوْقِ الشَّجَرَةِ وَ مَدَّ جَنَاحَهُ الأَيْمَنَ لِآدَامَ وَ قَالَ :

- هَيَّا اِرْتَقِ رَقبَتِي وَ حَقِّق الحُلْمَ .

فَعَلَ آدَامُ مَا أُمِرَ ثُمَّ سَحَبَ اللُّؤْلُؤَةَ مِنْ جَيْبِهِ فَاسْتَوَى الطَّائِرُ فِي الفَضَاءِ أَعْلَى الوَادِي . بَسَطَ الصَبِيُّ كَفَّهُ وَ قَدْ اسْتَحَالَتْ شُعَاعًا وَهَّاجًا ثُمَّ أَلْقَى اللُّؤْلُؤَةَ فَإِذَا الصَّخْرُ يَتحوَّلُ تُرَابًا فَيَرْتَفِعُ الْقَاعُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى أَنْ اسْتَوَى مَعَ السَّهْلِ .

عَلاَ التَّصْفِيقُ وَ عَمَّ الفَرَحُ وَ أَصْبَحَ الحُلْمُ وَاقِعًا . اِسْتَقَرَّ الطَّائِرُ عَلَى الخَطِّ التُّرَابِيِّ الذّي نَشَأَ عَلَى أَنْقَاضِ الوَادِي وَ خَاطَبَ آدَامُ قَائِلًا :

ـ صَوِّبْ شُعَاعِ اللُّؤْلُؤَةِ عَلَى هَذَا الأَدِيمِ ثُمَّ اخْفِهَا .

أَمْسَكَ آدَامُ الجِسْمَ المُشِعَّ وَ وَجَّهَهُ إِلَى الأَرْضِ فَاسْتَحَالَتْ أَزْهَارًا وَ يَنَابِيعَ وَ حَدَائِقَ غَنَّاءَةً . عِنْدَهَا تَقَدَّمَ الصَبِيُّ مِنَ الطَّائِرِ وَ قَالَ :

ـ لَقَدْ وَهَبْتَنَا جَنَّةً وَ أَمَلًا فَكَيْفَ السَّبِيلُ لِرَدِّ الجَمِيلِ وَ قَدْ مَكَّنْتَنَا مِمَّا كُنَّا نَظُنُّهُ مُسْتَحِيلاً ؟

قَالَ الطَّائِرُ :

ـ إِنَّ هَذِهِ الجَنَّةَ وَ هَذَا الأَمَلَ الذّي وُلِدَ عَلَى أَرْضِكُمْ إِنَّمَا مُكَافَأَةٌ لَكَ عَلَى إِرَادَتِكَ التِّي اِسْتَمَرَّتْ تَتَوَهَّجُ دَاخِلَكَ رَغْمَ كُلِّ الصِّعَابِ .

عِنْدَهَا تَقَدَّمَ آدَامُ مِنْ الطَّائِرِ وَ قَالَ شَاكِرًا:

- إِرَادَتِي عَظُمَتْ عِنْدَمَا حَضَرْتَ فشُكرًا لِتَوَاجُدِكَ .

ثُمَّ قَدَّمَ لَهُ اللُّؤْلُؤَةَ . أَمْسَكَهَا الطَّائِرُ وَ قَالَ :

- هِيَ لَكَ وَ لَا أَحَدَ يَسْتَحِقُّهَا غَيْرُكَ . الخَيْرُ الكَامِنُ فِيكَ وَ الحِكْمَةُ التِي تُحرِّكُكَ وَ حُبُّكَ لِلْعِلْمِ جَعَلُوكَ أَهْلًا لِإِمْتِلَاكِ هَذَا الحَجَرِ الكَرِيمِ الذّي سَتَتَسَلَّحُ بِهِ طِوَالَ حَيَاتِكَ .

ثُمَّ بَسَطَ جَنَاحَيْهِ وَ اسْتَوَى فِي الفَضَاءِ إِلَى أَنْ اخْتَفَى فِي الأُفُقِ الرَّحْبِ . عِنْدَهَا انْطَلَقَ الأَطْفَالُ نَحْوَ المَدْرَسَةِ وَ قَدْ تَقَدَّمَهُمْ آدَامُ وَاللُّؤْلُؤَةُ فِي يَدِهِ تُرْسِلُ شُعَاعَهَا صَوْبَ فَضَاءِ العِلْمِ وَ الْأَدَبِ .